صور طبق الأصل



الإهــــداء

الى خير من فرج عنى الهم .. وأزال الكرب .. الى أحد أصول هـذه الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلى

«يوسف السباعى»



هذه القصص أخذتها من الناس .. صور طبق الأصل لهذا وذاك .. لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل .. ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس – لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس – وكيف أحرم شيئا مشاعا .. شيئا أنا نفسى ناقله من الأصل المجسد .. كيف أحرم على الناس ما أخذته من الناس .

أأستطيع أن أدعى لنفسى حقا فى «امام الفلك» و «خال علام» .. وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفنى أن أضع اسمى عليها .. كأنى قد شاركت الرب فى خلقها .. حتى أحاول أن أدّعى لنفسى عليها حقوقا محفوظة !!

حرام والله .. انى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل .. فلو استطاعت النطق لصاحت بى ..

« أيها المؤلف المدّعى .. رفقا .. ما أنت الا غبى .. مغرور .. محتال .. غبى كغيرك من البشر .. هيأ لك الغرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدنا .. فجلست ترقب وتكتب .. وسوّلت لك نفسك المحتالة أن تبيع الناس ما كتبت عنهم .. فتنال منهم النقود .. وربما الاعجاب» .

انها على حق .. انى خجل .. ولولا يقينى بأنى لست المحتال الوحيد فى هذا البلد .. لما أقدمت على نشرها .

« يوسف السباعى »

خال علام

وخرج خال علاّم من الحمام وهو يصرخ ويتأوه ... ويسأل علام : لم لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . واندهش علام ، ووقف يستمع لما حدث .

حدثت الواقعة فى ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست أدرى أى شيطان ضاحك يدفع بها الآن فى رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت أن أكتب من أقاصيص . ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أروى الواقعة - أن أعطى للقارىء فكرة عن حياتنا وقتذاك ... فأرسم له ما يسمونه « الباك جراوند » التى ستتخذ الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نقطن الميس . والميس - لمن لا يعلم - هو سكن الضباط الذين يعيشون فى التكنات . وكان ميس السوارى مكونا من ست حجرات ، يسكنها دائما أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل مستطيل ناقص أحد الأضلاع .. يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن .. والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل ، ويقوم وراءه بناء منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هذا عن الميس من حيث البناء .. أما من حيث السكان فانى أجد من العسير على وصفهم .. فان نوادرهم تتكأكأ على ذهنى ، فلا أدرى بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناسا ظرفاء .. عزازا لطافا .. وكان لكل منهم شخصيته المرحة المستقلة .

انى لأجد الذهن يعود بى القهقرى فيقطع السنين الطوال فى لمح البرق ، وأجد نفسى مرتديا الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ، وقد عدت الى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والهتاف .. وقد أحسست بساقى قد كلتا من فرط السير واللف فى التكنات ، وأدخل الى الصالون لأرتمى على أقرب مقعد .. وليس لى من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمى .

والتفت حولى فأفاجأ بالبارودى – أحد زملائى – وقد اضطجع فى أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحذاء .

وتصيبنى الدهشة من منظره .. ترى ماذا أجبره على البقاء الى هذه اللحظة .. سجين القدمين معذب الجسد ؟ ولم لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيدا الى الخارج ليروح عن نفسه ؟ !

ولا تمضى فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلى السبب .

انه اللمونى .. ولا أحد سواه .

أجل ! ان اللمونى هو السبب بقاء أنور البارودى بهذا المنظر حتى الآن .. فلقد كان يناقشه الحساب .. وحساب اللمونى – لو تعلمون – عسير .

ولكنكم لم تعرفوا اللمونى بعد – فيجب على أن أقدمه لكم أولا .

اللمونى هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذى يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق .. وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس ..

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين فى المغالطة فى الحساب . وكما كان اللمونى قائد الطباخين .. كان – بحكم المهنة – شيخ المغالطين .

لننظر الى البارودى - وقد كان وقتذاك ضابط الميس - وقد اعتدل فى مجلسه وأوقف اللمونى أمامه يحاسبه حساب الملكين .

- ها .. وجبت ايه كمان ؟

- ست ارطال لبن وأقتين سكر .

- عشان ايه دول ؟

- عشان الرز أبو لبن .

- ست أرطال لبن وأقتين سكر عشان ست أطباق رز بلبن ؟ يعنى قصدك تقول ايه ؟ قصدك تقول ان كل طبق خد رطلين لبن ؟

- مضبوط .

- مضبوط ازاى بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لبن وأفرغه فى الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لأ .

ويبدأ البارودى تجربته .. فاذا بالرطل يملأ أربعة أطباق . وينظر الى اللمونى وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

- ايه رأيك ؟

وبمنتهى الهدوء يجيب اللمونى :

- أصل اللبن بيتبخر ، يقوم يخس .

- طيب بلاش كده .. تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

- كام ؟

- خمسة صاغ .. الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه بتلاتة تعريفة .. بتعملة انت بخمسة صاغ ، ايه رأيك بقى ؟

- وهو اذا زى بتاع أسدية ؟

- لا العفو .. زيه ازاى ؟ مش ممكن .. على العموم يالمونى من هنا ورايح ما تعملش رز بلبن أبدا . مش ضرورى ناكل رز بلبن .. هات حلو أى حاجة .. هات بلح أمهات .

- كل يوم ؟

- أيوه كل يوم .

- وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى دخول الشاذلى مصفقا بيديه منشدا بأعلى صوته : « يا تلتميت مرحبا وسلامات ياخلى .. ياللى تكيد العواذل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقا .. وقد كان هذا العشق هو سر بقائه فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويترنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللمونى وهو يهم بالانصراف من أمام البارودى فينادى عليه :

- لمونى الكلب .. تقدر تقول لى اللحمة اللى جبتها النهارده جبتها منين ؟

- من الجزار .

- مش ممكن ، لازم جبتها من العنقى .. تعرف أنا متهيأ لى أنك انت لما بتروح تشترى لنا الأكل بتعمل ايه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك كوسة شايخة ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنة ؟ يقول لك برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شويه . تقول : طيب لمهم لى ..وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا منتنة .. وتفضل تلم الزبالة اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

- ازاى بقى يا فندم ؟

- أهو كده .. اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم مافيش فى السوق حاجة وحشه .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر الى اللمونى أيضا ويصيح به :

- لمونى .. من بكره تطلع طابوز ركوب .

وهنا ينهار اللمونى .. فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها .. فقد كان بجسده الأبيض السمين المربرب لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللمونى ، وتتوافد الشلة الواحد بعد الآخر حتى يكتمل العقد وتنطلق الضحكات الخالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ الشلة فى التفكير فى العشاء ، فيصيح علام بعثمان شديد :

- وله يا شديد !

- عايز ايه يا علام ؟

- تشاركنى فى أقة عنب ؟

- عنب ايه يا عم .

- طيب تشاركنى فى بطيخة ؟

- لا يا عم أنا ما أحبش البطيخ .. أنا حاتعشى عسل وطحينة .

- إيه ؟ ! وبعدين لما أجيب البطيخة تبقى تقول لى اديني شقة ؟

- يا أخى بلاش دوشه .. ابعد عنى .. بطيخ ايه .. وعنب ايه .

ويشترى علام البطيخة .. ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفا قلبها .. فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

★ ★ ★

ولكن ما لى قد استرسلت فى الدردشة وقص الذكريات ورسم « الباك جراوند » حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟

لا أظن .. فقد ابتليت بأني قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .

حسن .. لنبدأ القصة اذن .. وعوضنا على الله .

★ ★ ★

تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك .. أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى .. ثلة مرحة ضاحكة .. نضحك من كل شىء وعلى كل شىء .. لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شىء واحد :

هو الحمام المبتل ! !

كنا نخرج مبكرين الى طابور الركوب ، فاذا ما عدنا للفطور بعد الطابور ودخلنا الى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام مغرقة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصياح :

- يالمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفا ، فيصيح به علام :

- ايه الميه دى ؟

ويهز اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة . ويستمر علام فى صياحه :

- فيه حد يستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

- لا يا فندم .

- لأ ازاى ؟ .. مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .

ويقسم اللمونى أيمانا مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحدا يستعمله .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم .. نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبسا بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثا ، حتى كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل .. وأن نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا - مراعاة لخاطر علام وقريبه المحترم - صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لنا به ، وأن نتحلى بالجد والأدب .

وكان قريب علام قد حضر من أوربا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علام حتى يسافر فى غده الى الاسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل علام ، وفى سبيل أن يأخذ الأغراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرعنا بالأدب والتزمنا الجد ، وجلسنا الى العشاء فى سكون وخشية أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضا الا بالرتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل

أعجب بنا أيما اعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان عاليا فى نظر الرجل .

وفى الصباح خرجنا كعادتنا الى الطابور ، وعدنا كلنا الى الميس بعد الطابور الا واحدا . هو الشاذلى .. فقد عاد قبلنا وترك الطابور فى منتصفه ، لأنه كان متعبا ، اذ كان على سفر فى الليلة السابقة .

أتسمحون لى ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلى ؟

انه انسان يستحق الوصف .. اذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا .. سأصفه وأجرى على الله .

ان خير ما يوصف به الشاذلى هو أنه رأس وحنجرة ، وهو يستعمل حنجرته أكثر من رأسه .. زعموا أنه كتب له فى تقريره السرى ذات مرة أنه « ضابط لا يحتاج الى بروجى » ، وهو فعلا لا يحتاج الى بروجى .. لأنى أسمع صوته أحيانا وهو يتكلم وأكون جالسا فى مكتبى فى كوبرى القبة ، وأقوم لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ، مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم الا أنه حاضر البديهة ، سريع النكتة حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه وذويه .. ويفضل أن يقولها ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد الذكاء والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ، والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنع بنفسه ، ولقد قلت له ذات مرة أن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلهف الى سماع الاشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ما سبب ولا فائدة .

عاد الشاذلى من الطابور ، واتجه أول ما أتجه الى المطبخ ليسأل اللمونى عما أعده من افطار .. والتهم فى فمه « اللى فيه القسمة » على سبيل التذوق .. وشتم اللمونى بما فيه القسمة أيضا ، ثم اتجه بعد ذلك الى الحمام .

ودفع باب الحمام فاذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلى بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيرا وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعا .. ويتسلل الى الحمام ليأخذ دشا أثناء غيابنا فى الطابور .

أنه أحد الطباخين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلى وفى صوته رنة انتصار :

- افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد .. بل استمر صوت « الدش » ينهمر ، وقطرات الماء تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلى يصيح مهددا :

- افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد .. ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلى عن الباب قليلا .. وبكل قوته دفع الباب بكتفه .. فانفتح .. واندفع هو الى الحمام .. رافعا سوط الركوب بيده .. ليهوى به على الجانى .. ويؤدبه تأديبا سريعا .

تعالت الصيحات ، وتعالت الضربات :

- آى .

- آى يا ابن الكلب .. امال فالح كل يوم تخش تستحمى وتغرق الحمام .

- أنا أصلى ..

- أصلك ايه ؟ ! أصلك حيوان .

- أنا ..

- انت ايه ؟

- أنا قريب علام .

- قريب مين ؟ !

- قريب علام .

- يانهار اسود .. وايه اللى جابك هنا .

وفى تلك اللحظة سمع الشاذلى صوت علام .. وأدرك ماذا يمكن أن يحدث له من علام اذا عرف ما فعله بقريبه ، فترك الحمام .. وانطلق يعدو فى الاتجاه الآخر .. هاربا من الميس .

وخرج قريب علام من الحمام يصرخ ويتأوه ، ويسأل علام لم لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية .. واندهش علام ووقف يستمع الى ما حدث ثم انطلق يعدو فى أعقاب الشاذلى .

ويعلم الله ما فعله به .

ويعلم الله كذلك ماذا كان رأى قريب علام فينا بعد العلقة التى أخذها لمغامرته بالاستحمام .

أغلب الظن أنه كان يفضل المبيت على قارعة الطريق .. فقد كان يصبح أكثر أمنا ! !



رحت الفرن

وصلنا الفرن سوا .. الواد سلّم الورقة بتاعته للفران ، وأنا سلّمته ورقتي .. ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمة استوت .. وروّحت البيت أكلت أكلة عمري ما كلت زيهـــــــــــــــا ..

- هفقت مفتاح !! .

- رحت الفرن ؟ ! .

تلك كانت الصيحات التقليدية التى كانت تنطلق كل يوم في شارع خيرت متبادلة بين حنجرتين قويتين مجلجلتين ، الأولى مستقرة على أحد مقاعد ترام رقم ١٢ ، والثانية قابعة على مقعد على رصيف الشارع أو ممسك صاحبها بأحد الأمواس أو ماكينات الحلاقة يجول بها ويصول فى أحد الذقون أو الرءوس .

كان صاحب الحنجرة الأولى هو أبى .. المرحوم محمد السباعى .. أما صاحب الثانية فقد كان الأسطى محمود المزين ! .

كان أبى يركب الترام من ميدان السيدة ويجلس على مقعده مهيبا محترما

بين الركاب بجسده الضخم القوى الممتلىء ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وبذلته الأنيقة المنشاة والطربوش الطويل يحجب معظم جبينه ويستقر على حاجبيه . كان يجلس بين الركاب فى نفخة واعتداد .. ويتحرك به الترام فى شارع خيرت .. حتى يمر بالبقعة المعينة فتنطلق منه صيحة مدوية فى جد واهتمام :

- هفقت مفتاح ؟ ! .

وفى لمح البصر ترتد اليه الصيحة كأنها صدى الصوت منطلقة من الأسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنطلونه وصلعته اللامعة يصيح متسائلا فى مثل جد أبى واهتمامه :

- رحت الفرن ؟ ! .

وهكذا تنطلق الصيحتان المتسائلتان المتبادلتان والترام ممعنا فى سيره .. كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران جوابا .. وترتسم على وجوه الركاب دهشة ويحاولون عبثا أن يفهموا سببا لما حدث أو معنى لما قيل .. وقد يتساءلون فيما بينهم عما قال أبى وعما قال الأسطى محمود .. وقد ينبئهم خبير سبق له الركوب مع أبى من قبل بأن ما قيل هو : « هفقت مفتاح » و « رحت الفرن » ، ولكنه يعجز عن تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك فى أن القارىء مهما بلغ به الذكاء الا يتساءل فى عجب وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجدا لسؤاله جوابا شافيا .

ان كلمة هفقت (بفاء مشدَّدة) تعنى فى لغة محمود المزين وفقت .. وللأسطى محمود لغته الخاصة التى تحتاج الى قاموس لتبيانها .. وهى تبدو فى نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة فى الوقت الذى ينطقها الرجل فى منهى الجد .. ولا يقصد بها هزلا قط .. لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطبق سواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه ملووقا فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقا خفيف الدم مرحا مهزارا .. وزاده

ثقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة .. وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون جادا حديثا فكاهيا مضحكا .

كان الأوسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » .. فاذا أراد أن يقول انه سيتغدى ملوخية بالفراخ .. كان قوله : « ملوخله » بالفيران » .. واذا أراد أن يضيف أن الحلو « كنافة » قلبها لسانه الى « كناسة » فأضحى غداؤه الذى يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالفيران والحلو كناسة » ! .

ولم يكن أبى يتخذ الأوسطى محمود مجرد حلاق .. بل كان يتخذه سميرا ومهرجا وصديقا وفيا ، ولم يكن يذهب اليه لمجرد الحلاقة ، بل كان يتخذ حانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتلهى بمشاهدة الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائرة مع الأوسطى محمود اذا كان منهمكا فى الشغل ، فاذا ما شطب جلس معه يسامره ويسليه .

وكان أول عثور والدى على الأسطى محمود .. أو اكتشافه له .. أقول عثورا أو اكتشافا .. لأن والدى كان يعتبر الأسطى محمود لقطة أو كنزا .. وكان يفضل صحبته على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن ايمان أنه خير وأفضل وأذكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم بالأدعياء .. أقول ان أول عثور والدى عليه كان بصالون الأسطى ابراهيم الحلاق على ناصية شارع السد البرانى وشارع التلول والملاصق لحانوت الفكهانى الكائن فى شارع التلول .

وكان الأسطى محمود وقتذاك عاملا فى صالون الأسطى ابراهيم .. فاكتشف فيه أبى مواهبه .. و تخذ من الصالون مكانه المختار .

والمدهش أن الأسطى محمود - باعتراف أبى نفسه - لم يكن حلاقا ماهرا بل كان أبى دائما يتهمه بثقل اليد .. وكان كثيرا ما يسبب له جروحا فى ذقنه حتى انتهى به الأمر الى أن يتخذ له حلاقا آخر للحلاقة مع بقاء الأسطى محمود فى مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق .. ومع استيلائه على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه ذقن أبى أو يمس مقصه شعر رأسه .

وفى ذات يوم فوجيء أبى بخلو صالون الأسطى ابراهيم من الأسطى محمود .. فأصابه الدهش وتساءل عنه .. فأنبأه صاحب الصالون بأنه طرده .. وأنه أحضر بدله صنايعيا ممتازا أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبى لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقا .. بل كان يعتبره عبقريا ممتازا .. وفيلسوفا كبيرا لم يجد الدهر بمثله .. وتعجب كيف لم يقدر الأسطى ابراهيم مواهبه وكيف طرده بمثل هذه السهولة .. دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن .. ودون أن يغلق الحانوت حدادا على ذهابه .. وكيف يدعى أنه أحضر بدلا منه انسانا ممتازا أكثر منه مهارة ؟ .

ولم يجب أبى على دعوة صاحب الصالون .. بل هز رأسه فى حسرة وأسى .. وغادر الصالون دون أن يحاول أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر عليه فى بيته بأحد أزقة البغالة .. ولم تمض بضعة أيام حتى كان الأسطى محمود قد افتتح صالونا خاصا به فى الناحية الأخرى من شارع السد لا يبعد كثيرا عن صالون الأسطى ابراهيم .. وكان أبى يتخذ منه مكانه المختار واضعا ساقا على ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبى الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون الأسطى ابراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفا :

– مالهش فى الطين (يقصد الطيب) نصيب . راجل ضلالى ونيته وحشه .

– أيوه مفهوم .. لكن إيه السبب اللى خلاه طردك ؟

– آل ايه بيقول انى هفقت مفتاح .

– بيقول ايه ؟

– هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى ان الأسطى محمود طرد لأن صاحب الصالون

وجد النقدية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه رفق مفتاحا فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على تهمة التهفيق التى اتهم بها الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .

ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى .. فهو لا يكاد يلقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

- هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !

وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها ، حتى ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

- يا سى سباعى .. الله لا يسيئك كفاية فضايح .. مابلاش السيرة المهببة دى ! دى ماكانتش كلمه .

ومع ذلك فقد استمر أبى يستعملها كتحية للأسطى محمود حتى وجد الأسطى محمود ردا لها .

كان ذلك عندما أقبل عليه أبى ذات عصر متهلل الاسارير ، ضاحك السن ، وصاح بالأسطى محمود :

- هفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. مالك مبسوط قوى كده ؟ خير انشا لله .

- خير قوى .. مافيش بعد كده خير .

- حصل ايه .. أخدت درجه ؟

- أحسن .

- أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الذى نشر له معظم كتبه ومنها رباعيات الخيام) .

- أحسن .

- شفت بنت حلوه ؟ .

- أحسن .

- فيه ايه أحسن من كده ، يا أخى قوللى بقى وريحنى !

- أكلت ورقة لحمه معتبره .

- ودى حاجه غريبة .. ! ما أنت كل يوم والتانى بتاكل ورقة لحمه .. هوا انت وراك حاجة غير ورق اللحمه وورق الكتب ؟ .

- لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازه غير اللى كنت باكله خالص .. حاجه ما تخطرش على البال .

- يعنى ايه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بنكنوت ؟ .

- لحمه .. لحمه ياغبى .

-يعنى لحمه من السما ! .

- من الجزار ياحمار .

- طيب كل مره ما انت بتجيبها من عند الجزار .. والا بتجيبها من عند باتا ! .

- دى ورقه ملوكى .. ما وردتش .

- ايه بس حكايتها ؟ .

- أنا أقول لك حكايتها .. النهارده رحت عند سلامه الرباط الجزار

وقلت له يوضب ثلاثة أرطال في ورقة زى العادة علشان أوديهم الفرن .. قعد يلم من هنا ومن وهنا ، حتة من بيت الكلاوى وحتة من الفخده ، وايشى عضم ، وايشى شغت لغاية ما كمل الثلاثة الأرطال وابتدأ يوضبهم وخرط عليهم البصلة وحط البهارات والتحابيش ولفهم في الورق وقال لي اتفضل .. حاجه معتبره قوى .

– هى دى الورقة المعتبرة ؟.

– لا .. مش هى .

– أمال منين الورقة المعتبرة ؟ .

– الورقة المعتبرة لقيته عمال يوضب فيها على جنب .. حتة قطعية نظيفة زى اللوز .. تلاقى حتة العضم ملبسه باللحم وفيها راق دهن زى القشطه .. وقعد يقسم فيها ويوضب ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت وسألت الواد الصبى :

– الورقه دى لمين ؟ .

فرد الواد بصوت واطى :

– دى له .. للمعلم سلامه نفسه .

– وقال الأسطى محمود معلقا على قوله : أظنك اتحسرت .

– قوى .. وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة بتاعتى ومش قادر أتكلم .

– الله يكون فى عونك .

– المقصود لف الورقة واداها للواد الصبى علشان يوديها الفرن وأنا أخدت الورقة بتاعتى عشان أوديها الفرن .

– وبعدين ؟ .

- ولا قبلين .. وصلنا الفرن سوا ... الواد سلم الورقه بتاعته للفرن .. وأنا سلمت ورقتى .. جه الفران يدخل الورقتين قلت له حاسب اوعى الورقتين يتلخبطوا لحسن دول زى بعض .. والا أقول لك .. هات لما أعلمهم أضمن ، وسحبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده منهم حتة ورقه وقلت له : المقطوعة دى تبقى بتاعتى ، والثانيه بتاعة المعلم سلامه .. وبعدين سبت الفرن ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمة استوت .. أخذت الورقة المقطوعة وروحت البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتى .

- ايه الكلام ده ؟ انت مش بتقول أخذت الورقه المقطوعة بتاعتك ! .

- أيوه أخذت الورقة المقطوعة لكن ما كانتش بتاعتى لأنى لما جيت أعلم الورقه قطعت ورقة المعلم سلامه .

ومنذ ذلك اليوم .. وحتى بعد انتقاله بصالونه الى شارع خيرت والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية .. فلا يكاد والدى يهتف به : « هفقت مفتاح » .

حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحت الفرن » .

فاذا سأله أحد شرح له المسألة بحذافيرها .

وقال لأبى : « واحده بواحده والبادىء أظلم » .



الأسطى عبده والمستر تويدى

ألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب .. وتوقفت عيناه برهة .. أمام الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأوسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين ، منظرا غريبا .

لا أظن أن هناك حديثا يشغل الناس فى هذه الأيام كحديث الغلاء، وعندما يتحدث الناس عن الغلاء فلن يخلو حديثم من مقاونة بين أسعار اليوم وأسعار الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش الآن وانخفاضها العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذى ضم ثلتنا بالأمس ليختلف عن غيره من مجالس الناس ، فسرعان ما ساقنا الحديث ذو الشجون الى ذكر الغلاء ، وبين عشية وضحاها انقلب الحديث الى مباراة ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص الأمس ، وانهالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسخط لاذعا حارا .

قال أحدنا وهو يهز رأسه أسفا :

– لقد أصبحت الحياة لا تطاق .. لم يعد هناك شيء محتملا ، لا مأكل ولا ملبس .. من يصدق أنى منذ أسبوع أردت أن أفصل بدلة عند « جباى » الترزى .. فطلب منى خمسة عشر جنيها ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجبا :

– خمسة عشر جنيها !! الله يرحم أيام زمان ، عندما كانت البذلة لا تكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشا قماش ، وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :

– اى والله .. مائة وخمسين قرشا ، كانت أقصى ما تتكلفه البذلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيوبنا فنأبى أن ندفعها الا بالتقسيط .

وضحك الأصدقاء ...

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيرا تمالك نفسه وأخذ يقص الواقعة فقال :

– كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاما ، وكنا وقتذاك طلبة فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت حجرة منفصلة كنا نأوى اليها للسمر والاستذكار .

وذات ليلة وقد انتظم عقد ثلتنا داخل الحجرة ، وبدأنا نستعد لمواصلة الاستذكار .. اذ طرق الباب طارق . وصاح أبو الفضل آمرا بصوته الجهورى « ادخل » ظانا أن الطارق هو « عم محمد » البواب يحمل الينا القهوة أو الشاى .

وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من ذعر وكثير من خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم فى الحجرة رويدا رويدا حتى مثل أمامنا .

وسألناه عما يريد فقال :

- أنا الأسطى عبده الترزى .

- تشرفنا يا أسطى عبده .

وانهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمى .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة .. بدأ الرجل فى شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتا للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راكدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطيع أن يحصل حتى على ايجار الدكان .. ولما كنا « الأفندية » الوحيدين الموجودين فى الحتة فقد لجأ الينا عسى أن نجبر بخاطره وأن ننفعه !

ولم يكد الأسطى عبده ينتهى من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفى يده المازورة يأخذ المقاسات المطلوبة لكل منا ويدونها فى نوتة صغيرة أخرجها من جيبه .. وفى غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعا .

ونظر أبو الفضل الى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف وهو يضع المازورة فى جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلا :

- بقى اسمع أما أقولك يا أسطى عبده ، ما تتعبش نفسك معانا .. احنا البدله بتاخد لها على جتتنا خمس سنين خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، وبعدين لما تطلع رديف نبقى نفكر نفصل بدلة جديدة ، ودلوقت أقدم بدلة على أى واحد منا ما تزيدش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين ربنا يديك العمر وتيجى تزورنا ان شاء الله .

- كل خمس سنين بدله ؟ ازاى يابيه الكلام ده ! دا انتم أسياد الناس .. أنا حا اعمل لكل واحد منكم بدلة تليق بالمقام .

- المقام محفوظ يا أسطى .. بس المسألة ان العين بصيرة واليد قصيرة . احنا قادرين نجيب علبة سجاير لما حانفصل بدله ؟

- دى الحسبه كلها مائة وخمسين قرشا يا بيه ، مش ضرورى تدفعهم مرة واحدة . ادفع اللى تقدر عليه ... ادفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

- وقبل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم أولانا ظهره وانصرف هاربا .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية على أجسادنا .

وأقول الحق انها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش وأننا رحنا نختال بها فى المدرسة كأية ثلة ارستقراطية وأن الزملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ، فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . واستمر فى التحصيل شهرا بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهرا ويزوغ شهرا ، الا واحدا منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن البذلة مليما واحدا .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالا بالبذلة ، وأكثرنا هربا من الرجل ، وفرارا من الدفع .

كان لأبى الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل مصروفه ، فقد كان مدمنا على السجاير ، وكانت له غطسات فى « أمكنة ما » تستنفد منه ما تبقى من النقود بعد ثمن السجاير ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر فى جيبه ما يستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى ييأس أو يكل ، بل كان ملحاحا مثابرا يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال .. لا تكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطا حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبا الفضل قد هرب من احدى النوافذ ، فاذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حائرا بين النافذة والباب حتى يصمم أخيرا أن ينقل ميدان المطاردة الى المدرسة ، فيفاجىء أبا الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم جيدا وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاخرا أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى يئس منه ومن مطاردته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فاذا بالحصار قد فك ، واذا بالعدو قد عاد الى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يختفى وراءها .

وكان هجومه على أبى الفضل مفاجئا ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وهدأ روعه ، ومد يده للأسطى عبده مرحبا .. وقال فى بشاشة :

– أهلا .. أهلا الأسطى عبده ، فينك من زمان ماحدش بيشوفك .. أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان عايز أديك قسط البدلة . أنا محضرولك فى البيت . ابقى فوت على فى أى وقت .

– بيت ايه يا بيت ! دا انت دوختنى تحت البيت وحيرتنى من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نوادر الزمن . أنا حافضل معاك لغاية مانرجع البيت سوا .

– مفيش لزوم تعطل نفسك يا أسطى عبده .. أنا ماحبش أعطلك .

– أبدا ، أبدا ، مفيش عطلة أبدا ، حابتنا لغاية ما نرجع سوا .

– نرجع سوا ؟

– أيوه .. نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة آملا أن يخدعه ويستطيع التزويغ من باب آخر ، فقال له ببساطة :

– طيب ياأسطى عبده ، أمرك .. ما دام عايز تستنانى خليك مستنى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .

- بوابة مين ؟ ايدى فى ايدك .. أنا مش حاخليك تتورب عن عينى . دانت لقاك مش بالساهل . أنا مافرطش فيك أبدا بعد ما التقيتك .

وكنا قد وصلنا الى باب المدرسة واجتزناه وتلف معنا الأسطى عبده .

ورأى أبو الفضل أن من الخير أن يتجنب الفضيحة وألا يحاول حجز الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل معنا ...

ووصلنا الى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا وجلسنا على التخت ، وبجوار أبى الفضل جلس الأسطى عبده ، مصرا على أن لا يتركه لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان مدرس الرياضة وقتذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدى . وكان الرجل نظاميا جادا . وكاتب حصته هى الوحيدة التى نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب في مكانه المخصص له وفى نمرته التي أعطاها له المستر تويدى .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدى أن يكون فى الفصل فى بدء الحصة بالضبط فيغلق الباب وراءه بعد دخوله .. ثم يفتحه فى الساعة التاسعة وخمس دقائق ليدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه الا فى نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطى فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك فلا يقبله فى حصته .

وفى التاسعة بالضبط كان المستر تويدى يجتاز باب الفصل ، وكان كل منا قد جلس فى مكانه صامتا ساكنا لا ينبس ببنت شفة واضعا أمامه على الدرج الكتب المطلوب استعمالها فى الحصة .

وكان الوحيد الذى لا يضع أمامه كتبا هو الأسطى عبده الترزى ، وقد خشى أبو الفضل أن يكشف المستر تويدى أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها أمام الأسطى عبده ..

وهكذا حلس الأسطى عبده على مقعده - كأحد الطلبه - جادا صامتا وأمامه الكتب المطلوبة فى درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدى انجليزيا مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على احدى عينيه .

ولست أشك فى أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر المستر تويدى جزع شديد ، فقد رأيته يحملق فيه وقد اصفر وجهه وأحس بمدى حرج مركزه .

وألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت عيناه برهة أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين اللتين تترجرجان فى وجهه .. منظرا غريبا .

ولكن المستر تويدى لم يقل شيئا ، فقد ظن الأسطى عبده طالبا جديدا ولا سيما أن كتبه كانت موضوعة أمامه .

وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى عبده لو أن المستر تويدى كان كبقية خلق الله من مدرسى المهندسخانة الذين يلقون المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون الفصل بسلام ...

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى الا أن يبدأ درسه بالسؤال فى الدروس السابقة مارا على الطلبة ملقيا على كل واحد منهم سؤالا بالدور .

وبدأ المستر تويدى أسئلته فى التفاضل والتكامل ، ووصل الدور الى الأسطى عبده ..

وانطلق السؤال من المستر تويدى الأحمر المهاب ذو المنوكل ليستقر على الأسطى عبده الغلبان الكحيان الذى ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده الترزى ليجيب على سؤال عويص فى التفاضل والتكامل .

وكانت اجابة السؤال على ما أذكر (د . س) على (د . ص) ، وكانت بطون الطلبة تصطخب بالضحك . وبدأت المحاولات لأنقاذ الأسطى عبده فأخذت الأصوات تهمس من حوله بالاجابة قائلين له :

- شد حيلك ياأسطى عبده .. ما تخافش . المسألة بسيطة خالص .. قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بسيطة قط ، ولم يستطيع ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على (د ص) .. ولكنه أمام نظرات المستر تويدى النارية المصوبة اليه ألقى الاجابة حسب ما يمكنه أن يفهمها ، فقال وهو يرتجف :

- دى س ودى ص .

واقتنع المستر تويدى وأشار له بالجلوس ، وظلت الأسئلة تلف ثم تستقر مرة أخرى على الأسطى عبده حتى نشف دمه وبقى كريشة فى مهب الرياح ، وكانت تتعالى الأصوات هامسة حوله بالاجابة فيلتقطها كالبغبغاء ويطلقهامتوكلا على الله ثم يرتمى على المقعد غارقا فى عرقه ، حتى انتهت الحصة ، وانتهى معها الأسطى عبده .

اى والله .. لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج المستر تويدى ، وعندما أفاق بكى بكاء حارا ، وأقسم يمينا ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد ذلك ، وألا يطالب أبو الفضل بقسط البذلة .

وأثر فينا بكاء الرجل . فاكتتبنا كل منا بخمسة قروش وجمعنا له ثمن البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنا بالاكراه .





قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذارى الى بطل القصة - عمى ، وحماى - « طه السباعى باشا » لأنى لم أستأذنه فى النشر راجيا اياه ألا يصدر بيانا يكذبنى فيه .. لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماما أنه ليس هناك أكذب فى هذا البلد .. من بيانات التكذيب .

لنبدأ القصة والعربة عائدة من الاسكندرية تنهب الطريق الصحراوى نهبا ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة الى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوى فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى احدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيرا الى بيت فى منشية الطيران .. متعبى الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة الى باب البيت وأخذت أتحسس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس

طريقنا فى حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

– أكياس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسى الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدى قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكياس فى محلها الواحد بعد الآخر .

كان نزع الأكياس هو أول شىء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه – لا سمح الله – حريق يودى بالبيت .. وكان ثانى شىء هو اغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس الى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفىء اللمبات التى لا نحتاج الى ضوئها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقى عليه نظرة اعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها احدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيرا قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :

– انظر .. لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعى أنا الآخر على أقرب شىء الى وقلت موافقا :

– أجل ! لا أثر للتراب .

– شهران .. والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب .. ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم .. مجانين ، مصابون بجنون النظافة .. انهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، انها عندهم هواية ، أو طريقة لاغاظتنا والتنكيل بنا .. والا فما معنى تنظيف الشىء النظيف ؟ . أتعرف أنهم فى عز الشتاء يدخلون الخادم يوميا بجردل المياه لمسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثا ، حتى انتهى بى الأمر الى أنه ليس هناك وسيلة الا بازالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت الى حملته عليهم – أو على الأصح عليهن – وأنا أؤمن مخلصا على كل فقرة فيها .

وكانت هم .. أو هن .. هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعنى زوجته وزوجتى ، أو بعبارة أخرى حماتى وابنته .

وكنا متفقين تماما فى مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماما أن أهل البيت من الحريم مصابون – بلا جدال – بداء النظافة .. يؤيدنا فى ذلك زوج الابنة الأخرى .. عديلى وابن عمتى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد له فى حياته الا أمنية واحدة .. وهى أن يهيىء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقذارة ، والذى فكر فعلا فى أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها زوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحا كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا – أنا والعم – أسبق منه الى تحقيق هذه الأمنية .. وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأتربة والقذارة .

كانت عودتنا من الاسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لنتحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فسادا .. وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساما وأثبت أنه لا يشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغبار – غبار .

لقد فاز على فى سباق الفوضى ، فوزا مبينا .. جعلنى أيأس من الاستمرار معه فى ميدان السباق .. بل جعلنى أكره – فى مدى يومين – الفوضى التى كنت أتوق اليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت الى انسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعث ما فرق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة .. ولم يحاول أحد منا الخروج .. فكلانا مبكر فى نومه .. وزادنا التعب رغبة فى النوم وزيادة فى التبكير ، فلم تدق التاسعة حتى كان كل منا آوى الى فراشه .

ومع ذلك .. وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول حتى النوم أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة .. كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن واخراج الروائع والآيات .

لم نكن نلتقى الا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر فى الدار – ونحن على حال من اليقظة – الا لماما .. ومع ذلك – ولا أدرى متى ولا كيف – تمكن العم من اخراج روائعه واشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجى فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب والتوسيخ أجد لزاما على واحقاقا للحق ، ووضعا للأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال التعمير والاعاشة .

كان أول ما فعلنا .. غير وضع أكباس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب والمانجة وصندوق بيبسى كولا ، ووضعها فى الثلاجة على سبيل التموين وخزن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتموين هو العامل الأكبر فى اشاعة الفوضى فى البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة ، ولكن الذى حدث – وبعون من الله وبمساعدة العم – هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوما أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم .. واذا بالحجرات قد أضحت أشبه بالخرائب

وهكذا وجدا من الأتربة الأساس الملائم .. أو « الباك جراوند » المناسب .

لقد كست الأتربة كل ما فى البيت .. أعطته لونا رماديا مغبرا لا يكاد يستبين منه لونه الأصلى .. اللهم الا من خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتى انتقلت أتربتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى التى انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو الأرض ، فقد كان كل شىء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .

وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

احدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر على البال .. واحدة فوق الفراش ، واثنتان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنتان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنتان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا الى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد .. أما غطيانها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين ، أما الواحد الباقى فهو ما زال محشورا فى فتاحة الزجاجات .. لم يفكر أحد فى نزعه من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الاحدى عشرة زجاجة - أو الأحد عشر كوكبا - سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوصة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هى دون أن تغسل .. سوداء ، مطحوسة ، لزجة .

تلك هى بقايا العنب .. تعاونها فى اعداد تابلوه الفوضى والقذارة .. مخلفات المانجه .. ببذورها المبدورة فى أنحاء البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلا لزراعة المانجه ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المانجة السائل فى لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات

العجيبة تجد فردتى الحذاء والشراب .. مستقرة فى فراقها الخالد .. ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التى كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئا فريدا .. كان لابد من أن تكسر ملة السرير - دون أن يفكر أحد منا بالطبع فى اصلاحها - فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح الا للدحرجة والدألجة .. يعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة .. تحتاج الى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الاخراج .

وقدم الموسيقى فى هذا المنظر الفوضوى صنبوزان للمياه .. صنبور تلفت جلدته فأخذت المياه تنكسب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الناى أو صفارة الانذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب - وكان هذا من ضمن أعمال التعمير - بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيرا انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها الى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحريم حتى نتشفى منهن وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى طراوة الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة

الرابعة والنصف صباحا وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئا حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر .. ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه .. وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيبتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى باحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ .. وسرعان ما حلقت ذقنى وارتديت ملابسى .. وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب - بنسيانى حاجة ما - أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو الى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ما سقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة .. ونزعت أكباس الكهرباء .. وأخذت أتحسس طريقى الى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبى .. وهممت بركوب العربة عندما صاح عمى :

- انتظر .. لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكباس وأصعد الى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى .. رغم أنه حذرنى من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

- هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الاسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذنت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سببا فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر فى الساعة وقال :

- الساعة الخامسة الا ثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل - بالراحة - الى البيت فى الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولى :

- أظن ذلك اذا لم يحدث عطل .

- ان شاء اللّه لا يحدث عطل .

وكنا قد بلغنا - عندما قال قوله هذا - بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتى ترام .. ولكنه لم يكد يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما قد تذكر أمرا هاما :

- لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشىء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن الفكرة دارت فى رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات .. وبين محاضرته عن ترتيبات السفر ، وعدم الرغبة فى التعطيل .. وأخيرا صاح بالسائق :

- سوق على طول .. لست فى حاجة الى الدفتر .. ان معى من النقود ما يكفى ، ولا أظن سأحتاج اليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربة فى طريقها الى شارع الهرم .. وحمدنا اللّه على أن ما نسى كانت أشياء بسيطة .. ولم يكن هو - على حد قوله - فى حاجة اليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلى .. ووصلنا الى ميدان الاسماعيلية ، وعبرنا كوبرى قصر النيل ، وقد اضطجعنا فى مقاعدنا مستريحين هانئين ، نحسب فى أذهاننا الساعة التى سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة الى حد أنها ستفاجىء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل الى الأمام .. ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

- موسى .. دور ، عد بنا الى البيت .

وتلفت اليه فى دهش شديد ، متسائلا عما حدث .. فأطرق برأسه ، وقال فى يأس :

- لقد نسيت حقيبة ملابسى .



فى ردنجوت

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت - جدتى - أكمامه ، وثنت ساقى البنطلون وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى (يلق) فى الحذاء وكأنى ألبس مركبا !!

- أهلا .. وسهلا سعادة الباشا ...

- أهلا بك .. ازيك يا أستاذ ...

- الحمد لله .. الى الاسكندرية ان شاء الله ؟

- ان شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد .. فالطائرة توفر كثيرا من الوقت .

- ولكن الأرض أضمن « أنل قدمى ظهر الأرض أنى » .

- ياسيدى .. العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافها متقطعا .. حديث لقاء عابر فى قطار .. وكنا نجلس فى عربة تكييف الهواء فى القطار السريع المسافر الى الاسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج ،

في ارد نجوت

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت - جدتى - أكمامه ، وثنت ساقى البنطلـون وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى (يلق) فى الحذاء وكأنى ألبس مركبا !!

- أهلا .. وسهلا سعادة الباشا ...

- أهلا بك .. ازيك يا أستاذ ...

- الحمد لله .. الى الاسكندرية ان شاء الله ؟

- ان شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد .. فالطائرة توفر كثيرا من الوقت .

- ولكن الأرض أضمن « أنل قدمى ظهر الأرض أنى » .

- ياسيدى .. العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافها متقطعا .. حديث لقاء عابر فى قطار .. وكنا نجلس فى عربة تكييف الهواء فى القطار السريع المسافر الى الاسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج ،

ويملأ بالكبرياء أشد الناس تواضعا ، وينفخ بالأرستقراطية أحطهم قدرا وأوضعهم شأنا .

واضطجعت فى المقعد اللين الوثير ووضعت ساقا على ساق .. فقد كانت تلك هى أقل جلسة يمكن جلوسها فى هذا الجو الفاخر ، ولا سيما أن الباشا محدثى كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقا على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أمعن فى السرد - أن أزيل من ذهنى القارىء ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطىء عن الباشا الذى نحن بصدده ، فيظنه مما قلت عن باشويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعى ولا المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجا للذكاء واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبد العزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين فى البلد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات للأوتوبيس والدوبارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتلألأ نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار الى قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكنت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته ، فلما لقيته زاد تقديرى له .. لما رأيته من خفة دمه ودماثة خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس فى مقعده ووضع بين شفتيه سيجارا طويلا .. وتدلت من صديريته سلسلة ذهبية .. وبدا وجهه منتفخا ، ووضع على عينيه منظارا رقيقا ذا اطار ذهبى أنيق ، وداخلنى من منظره اعجاب كثير .. وقلت لنفسى : ان مثل هذا الرجل جدير بالاحترام .. فقد كسب مركزه وثراءه بجهده وذكائه .. وأن مخلوقا موهوبا مثله كان لابد أن يلقى ما لاقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه الى جسده .. الى ساقيه .. وقد وضع احداهما فوق الأخرى .. فشمر بنطلونه وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة ..

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعا .. سؤال من هنا .. وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته .. طفولته .. وصباه وشبابه .. ان حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درسا نافعا لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء كأنها فى ضيق .. ثم أبصر بيده تمتد الى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكى تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده الى مكانها من جيب صديريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقا على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رآنى أرقب عملية نزع الحذاء ثم تمتم معتذرا :

– لا مؤاخذة .. أحب أن أريح قدمى قليلا .. ان الحذاء ضيق بعض الشىء .

– العفو يا سعادة الباشا .. خذ حريتك .

– انى دائما ألبس حذاء ضيقا .. فليس أبغض الى من الحذاء المتسع .. انها عادة قديمة .. قديمة جدا .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

– زمن ! ..

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة فى كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الاسهاب .. ولكنى وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته .. صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت الى صاحب الشخير فاذا به عجوز قد راح فى سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر اليه ثم يستغرق فى الضحك مرة أخرى ويعود الى لهجته الساخرة قائلا :

- دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهى بعض علامات الضيق الناتجة من اغراقه فى الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن .. فقد بدأ يفصح قائلا :

- الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع .. لقد كان مصدر شقائى فى باكورة الحياة .. كان أكبر مصيبة رزئت بها ..

وعاد الرجل الى الضحك ، فلم أملك سوى أن أستغرق معه فى الضحك .. حتى بدأ يتمالك نفسه قائلا :

- كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاما ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر فى حارة الروم .. وقد ضمنا جميعا بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير - والد أمى - تاجرا بالغورية .. يعيش من أولاده خالى الأكبر وخالى الأصغر وأمى .. وكان أبى قد توفاه الله ... وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتى من الخال الأصغر - خالى طه - وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزانا أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالى طه - من يومه - نظريات رفيعة فى فن الاقتصاد ويبدو لى أنه قد أبى الا أن يطبق نظرياته الرفيعة - التى كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك - فى عملية شراء ملابسى المتواضعة فقد خرج الى السوق يجول جولة بين الغورية والموسكى ليبتاع لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبنى حتى لا أعرقل حركته .. وخاصة أنه لم يجد هناك مبررا لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسى بالنظر . واستمر ينتقل من دكان الى دكان .. دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم .. حتى وقف فجأة أمامه بذلة معلقة فى أحد الدكاكين .

عجيب .. ! هذا سعر لا يصدق .. أنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا .. لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر .. ليدخل اذن ، ويتحقق بنفسه .

ودخل الحانوت وسأل صاحبه .. فأجابه أن السعر مضبوط لا لبس فيه ولا خطأ .

مدهش .. ! خمسة وسبعون قرشا لبذلة ردنجوت ! .

لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه ... وأنه لهذا أبى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشا . ! يا بلاش !.

انها صفقة هائلة .. لابد من شرائها .

انها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة .. ولكن لا شك أنه يمكن استعمالها .. ولا يغرب عن البال أننى صبى وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد .. وقد أنمو فى العام القادم فجأة .. فتصبح البدلة محبوكة على .

ولكنها .. ردنجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال لبس الردنجوت ؟ .

لا .. لا .. يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها .. لمجرد أنها فى حد ذاتها صفقة رابحة .. بصرف النظر عن صاحب البدلة ... وصلاحيتها له .

أجل .. اننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائما للبدلة .. لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا ...

وهكذا تم شراء البدلة .. أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لا تقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمى دائمة النمو ، وأن حذائى الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لا يضيق على ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد الى البيت يحمل الردنجوت والحذاء الكبير .

لقيته جدتى مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر .. فأنبأها بلهجة الواثق ان هذا خير ما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى - ككل طفل - أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لارجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت - جدتى - أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت أنتقل الهوينا بقدمى « يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركبا ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نموى .. فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا أهرول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثا أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قدماى .. لقد كان خالى بعيد النظر جدا .. أبعد مما استطعت أنا الوصول اليه .

وكانت البذلة والحذاء أمرا محتملا فى العيد .. لاسيما أن جدتهما وفرحتى بهما لى تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الاجازة وأذهب الى المدرسة .. حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجنى الضجة .. فقد كنت - من يومى - مخلوقا مرحا « هليهلى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الردنجوت مبعثا لخجلى أو

لضيقى .. بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم على ، أردها تارة وأحتملها تارة أخرى ، أنا فى الحالتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن أحتمل الرنجوت .. أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس .. أى بعد فسحة الغداء وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى .. كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام .. فقد كان دائما يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذا أكثر مني غباء . وكان ينصحنى دائما بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن على فقد كنت فعلا مخلوقا غبيا ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئا عن النحو والصرف والاعراب لسبب واحد .. هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظا فى حصة واحدة من حصص الشيخ على .. فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشراهة التى أتناول بها الطعام ... تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمرا مستحيلا .

وكان نومى - قبل أن أرتدى الحذاء اللعين - مسألة مضمونة مأمونة .. أما بعد ارتدائه .. فقد أضحى عملية مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول .. ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعدا خاصا فى الحصة الخامسة .. هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه آمنا مطمئنا .. يحجبنى عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى .. الذى كان يستر جسدى الضئيل تماما .

ويبدأ الشيخ على الشرح .. بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لا تتغير .. والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص المنومة ، وأحاول عبثا أن أتتبع حديث الرجل عن البدل

والحال .. ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة فى سبات عميق .

وكانت عادتي – وما زالت – عندما أنام وأنا جالس أن أتخذ وضعا مريحا .. بوضعى ساقا على ساق !

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزأنى الخال العزيز .. بالحذاء اياه .

لقد وضعت – كعادتي – ساقا على ساق ، ورحت فى سباتى .. أنعم بنومه هادئة عندما سمعت في الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادىء .

وفزع الشيخ على وصاح ثائرا :

– ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله فى نفس واحد :

– حذاء عبد العزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لى جفن فى درس عربى . لقد كنت لا أكاد أحس بالخمول وأستسلم للنعاس واضعا ساقا على ساق .. حتى ينزلق الحذاء من قدمي ويهوى الى الأرض فى ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على فى حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة .. بل كان يصيح حانقا :

– اخرج بره يا واد يا عمران يا بن الكلب .

ثم يهجم على ويعدو ورائى وأنا ممسك بالحذاء فى يدى ، وأنطلق هاربا من الفصل ، والتلاميذ يضجون بالضحك والأستاذ يضج بالشتائم ويصيح :

– أقسم انك لن تفلح يا غبى يا بليد .. هذا شاربى ان كنت تفلح .. سأذكرك بقولى هذا فى المستقبل .. عندما تصبح كمساريا ، أو عربجيا . ! هذه أشكال لا تنفع فى المدارس .

★ ★ ★

ولم يكد عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه (الباللى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى الى الأرض ، ورغم أن الضجة التى أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض كانت ضجة خافتة الا أنها كانت كافية لأيقاظ الشيخ المغرق فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع .. وبحركة لا ارادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه الى عمران باشا قائلا فى أدب :

- اتفضل يا سعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

- العفو يا سيدى العفو .

وقبل أن يعود العجوز الى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا ، فيشير بيده الى ثم الى الشيخ قائلا :

- الأستاذ على الأبريمى ..

وتملكتنى دهشة شديدة .. أهذا اذا هو الشيخ الابريمى .. مدرس العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس .. فاستغرق فى نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمما حديثه متجاوزا عن علامات الدهشة التى بدت على وجهى :

- لقد مرت الأيام وانتقلت من مدرسة الى مدرسة ، والشيخ على ما زال مدرسا للغة العربية ، وأصبحت مهندسا وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وتوظفت فى الحكومة واستقلت من الحكومة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل على مرحبا مهللا مكبرا ، وصاح بى :

- ما شاء الله . ما شاء الله .. من يومك وأنت فالح .. هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا الفلاح . أتذكر يوم قلت لك انى سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟ .

- أنكر يا شيخ على .. أنكر جيدا .

وأنبأنى أنه سيحال الى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ، بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاما .. فقلت له :

- ربنا تاب عليك من التدريس يا شيخ على ! .. تحب أشوف لك وظيفة فى الشركة ؟ .

- ياريت .. !

وهكذا ختم الشيخ على الابريمى مطافه المدرسى .. بوظيفة فى شركة الدوبارة .

وصمت الباشا برهة .. فسألته :

- وماذا يعمل الشيخ فى الشركة ؟ .

- لا شىء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟ يسهينى ويرفع الحذاء الساقط .. ! رحم الله العلم والتدريس فى أرض الكنانة !

★ ★ ★

الوسواس الخناس

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فحوت شفتيها ، وقبلتها فى لهفة وشوق ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور النـــــــــاس .

كنا أربعة أو خمسة من الصحاب التففنا حول مائدة فى منتدى وأخذنا نقطع الوقت بالحديث والسمر .

وما أنكر أن الصحبة اجتمعت الا كانت الأنصاف الحلوة مدار الحديث وموضع السمر .. وعندما أقول الأنصاف الحلوة أعنى بالطبع الأنصاف الحلوة بكافة أنواعها بما فيها الأنصاف الحلوة الشرعية .. والأنصاف الحلوة غير الشرعية .. والأنصاف الحلوة الطائرة العابرة الفاتنة الفاتكة .

أما الأنصاف الحلوة الشرعية – أعنى الزوجات اذ كنا كلنا أزواج – فقد كانت فى نظرنا حلوة باعتبار ما كان وما كنا نذكرها فى أحاديثنا بغير المرارة والشكوى والهجاء والتشنيع .

أما الأنصاف الحلوة .. غير الشرعية ، فقد كانت فى أحاديثنا ذكريات

حلوة غابرة ومغامرات نتبادل سردها على سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائرة العابرة فما كنا نملك ازاءها الا الحملقة والحسرة .

أخذنا فى الحديث عن الأنصاف غير الشرعية وهو أحب الحديث الى أنفسنا وجعلنا نتبادل قص المغامرات والنوادر .. وبين آونة وأخرى يطبق علينا الصمت فجأة .. وتتحرك أعيننا فى اتجاه واحد وبزاوية نظرة واحدة محملقين فى نصف حلو عابر .. حملقة من لم ير نصفا حلوا من قبل .. مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما فى جوفه من نوادر الصبا .. الا واحدا كان أكثرنا تؤدة وأقلنا حديثا .. فقد أخلد الى الصمت والاستماع حتى استحثه بعضنا بقوله ناهرا :

- توفيق .. قل شيئا ، وكف عن هذا الصمت الثقيل . لابد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :

- قل ولا تخف .. لن نبلغ زوجتك شيئا .. أليس لك مغامرات ؟

وأجاب أحدنا بالنيابة عنه :

- لابد أن له مغامرات كثيرة .

وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :

- مغامرة واحدة .. والله العظيم .

وصحنا كلنا فى نفس واحد :

- قصها علينا .. لن نتركك حتى نستمع اليها ! .

وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة الى ذهنه ويلم أطرافها من

أنحاء الماضى .. ثم ضحك ضحكتين قصيرتين ، وأخذ يقص مغامرته قائلا :

★ ★ ★

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاما وأنا مازلت حديث عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظف .. حديث عهد بالاستقلال الذاتى ، وبالاثنى عشر جنيها أتناولها فى أول كل شهر وأشعر أنه ملكا خاصا لى .. وأنى حر التصرف فيها أصرفها كما أشاء .. وأبددها حيثما أشاء ! .

ومع ذلك فلم أكن أبددها ولا أصرفها .. بل كنت أقتصد جزءا كبيرا .. لأنى كنت أعيش فى ذلك الوقت مع والدتى .. ولم يكن هناك أوجه للصرف .. لاسيما وأنا كما تعلمون مخلوق طيب هادىء لم أستطع بعد - رغم توظفى - أن أتحرر من الاحساس بأننى ما زلت تلميذا .. وأن أوسع نطاق نزهتى وفرفشتى .. فكان أقصى ما أفعله من برم ، هو أن أذهب الى السينما ما تينيه وأتناول ٢ سندويتش من الأمريكين وقطعتى جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة فى شارع فؤاد وعماد الدين متطلعا الى الغاديات والرائحات أو المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود الى البيت حامدا شاكرا فلا تدق العاشرة حتى أكون راقدا فى الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهييص والفرفشة : سينما وسندويتش وجاتوه وتطلع الى النساء والفترينات .. حتى بدأت المغامرة الأولى .. وراء احدى الفترينات .

كانت الفترينة المقدسة .. فترينة الهوى والذكريات .. هى فترينة ريفولى الكائنة على ناصية شارع عماد الدين وشارع عدلى .

والفترينة فى حد ذاتها عامرة حافلة .. ملفتة مغرية .. وهى تقع فى معبر هام لا يكاد يمر يوم دون أن أعبره رائحا أو غاديا .. متمهلا أمام الفترينة مستعرضا محتوياتها ونظارها متطلعا الى ما فى داخلها وخارجها ممتعا الطرف بما فيها وما حولها .

وزاد تمهلى يوما بعد يوم ، وأضحى مرورى بالفترينة ووقفتى أمامها

واجبا مقدسا لابد من تأديته . وأخذ البصر يتجاوز ما فى الفترينة الى ما وراءها .. وينفذ من الزجاج متخللا المعروضات عابرا الظهر الزجاجى مستقرا على وجه معين يتخذ مكانه فى أحد أقسام المحل .

وكان وجها حلوا صغيرا دقيقا متسع العينين .. لذت لى مشاهدته كل يوم .. حتى أصبحت عادة ملحة عندى ، وبدأت أضع زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج الفرفشة والبرم وأضيف الى السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، وقفة بفترينة ريفولي لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة الى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتى لا تتجاوز التطلع من وراء الفترينة .. حتى وسوس لى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .. بأن أتجرأ قليلا وأقدم على عمل ايجابى وأقنعنى بأن دخله فى المحل ووقفة أمام الساحرة ومحاولة الشراء ستنيلنى الأرب وتبلغنى المنى دون أن يكون فى عملى خروج على مألوف أو لفت لنظر .

واقتنعت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت المحل .. واتجهت رأسا الى بغيتى دون أن يكون لدى أى فكرة عما أنوى شراءه .

ووقفت أمامها وجها لوجه .. أو بتعبير أدق عينا لوجه .. فما كان بى وقتذاك سوى عينين تحملقان فى وجهها الحلو .. ومضت برهة وأنا أفحصها وهى ترتب بعض البضائع فى منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت الى بصرها متسائلة :

- أفندم ؟ .

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفى بالحملقة فيها بل أشترى شيئا ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وبنظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيكير وعطور وبودرة ومقصات أظافر وكريم للوجه .. الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولا أن أجد شيئا يصلح للشراء .. أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى .

ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لى .. فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتى قائلا فى نفسى أنى لم أهدها شيئا منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة ببصر حائر وذهن قلق مضطرب لاحساسى أنى واقع فى هذه اللحظة تحت بصرها .. وأنها ولا شك آخذة فى فحصى ولو على سبيل التسلية .

وفجأة تذكرت أن والدتى كانت قد طلبت منى ربع أقة حنه بغدادى من الحناوى بالغورية .. وقلت لنفسى أنه لو كان لدى الفاتنة هذا النوع من الحنة فان المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقا من عند الله ، وأكون بذلك قد أرضيت نفسى ووالدتى وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلا :

- عندى حنه بغدادى ؟ .

ولم تستطيع الآنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثغرها وهزت رأسها وقالت فى لهجة فيها زجر خفيف :

- لا يا فندم .. ألا تريد شيئا غير الحنة البغدادى ؟

وأصابنى الارتباك من هذا الزجر الذى كشفت به أمرى وقلت مدافعا :

- أريد أى شيء .. أهديه لمخلوق عزيز .

وتأملت المنضدة برهة .. ثم أخرجت لى علبة فى حجم الكف وفتحتها قائلة :

- هذه علبة لطيفة .. بها طقم كامل للزينة .. هذه زجاجة الريمل ، وهذه زجاجة المانيكير ، وهذه بودريير لطيفة جدا لم يعد عندنا سواها .. أنصحك بأخذها .

وكانت لهجتها فى الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر من شفتيها كما يقطر عسل النحل ! .

انها تنصحنى بأن آخذ العلبة .. ولم أك أقوى على رد النصيحة ، ولو كنت ملاقيا فيها حتفى .. ولا كنت بمستطيع رفض العلبة ولو كان بها بدل الرميل والمانيكير سم زعاف !

وأخذتُ العلبة ودفعت فيها كل ما فى جيبى فلم يبق معى غير أجرة الترام .. وعدت الى البيت قريرا هانئا كأنى قد فتحت عكا ، أو كأنى جبت الديب من ديله ! .

ولا أظن هناك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى وثورتها على ، واتهامها اياى بالخبل واصرارها على ارجاعها ، وانتهى الأمر بها الى بيعها الى احدى القريبات بنصف الثمن .

وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية لمحل ريفولى .. ولكنها غزوات خسائرها خفيفة محتملة .. فيوما أبتاع بنسات للشعر .. ويوما آخر أبتاع ملقاطا للحواجب .. وهكذا ظللت أمزمز على بضائع الحسناء وأخرج منها بما خف حمله وخف ثمنه !

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكدست لدى كمية من أدوات السيدات أستطيع أن أسرح بها فى عربات الترام ، وكان لابد لى من أن أضع للأمر نهاية ، لا سيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث العابرة والنظرات الطيارى زادتنى شغفا وولعا .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يوسوس فى نفسى ويأمرنى بأن أتخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى بأن انتظارها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة بيتها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة فى مغامرتى .

وفعلتها .. ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه .. وخرجت البائعة الساحرة .. وسرت أتبعها فى حذر عن بعد .. حتى انتهى بى المطاف بعد طول سير وركوب أتوبيس الى باب بيتها بالسكاكينى ، ودخلت هى ، وعدت بلا .. حتى خفى حنين .

وهكذا بدأ التطور الثانى لبرنامج فرفشتى ، فزاد على محل ريفولى وتوصيل الحسناء فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى بيتها فى السكاكينى .

واستمررت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة تشعرنى أنها تعرفنى أو تحس بى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلا تاما ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع فجأة .. ثم تختفى ، فان اقتنصها الانسان ذاق سعادة العمر ، وان تركها تفلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك تذاكر سينما مترو بول ، توشك أن تبتاع تذكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس - بلا جدال - هو الذى وسوس هذه المرة فى صدرى .. لأنى اندفعت قبل أن أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من البائعة اعطائى التذكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتنصت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ، ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت الفرصة .. فأنتم تعرفون أى انسان خجول أنا .

وجلست بجوارها كتفا فى كتف وذراعا لصق ذراع ، وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز - من فرط الخفقان - من أضلعى .

وأطفئت الأنوار ، ولم أحاول بالطبع أن أنظر الى الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزا فى كيف أبدأها الحديث .

وهدانى الخناس الى أن أمس ذراعها بذراعى وأتحسس يدها بيدى .

وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغدا من مرفقها فى جانبى .

وبلعتها ، وكتمت الزغد فى جنبى !

وعاد الوسواس الخناس يلح فى وسوسته ويقول :

- أقدم .. أقدم !

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويغرى وأنا ألبى ، حتى انتهى الأمر الى بى الى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى جانبى ، بل من الجالس ورائى ، وفى ظهرى ، وهو يهمس بى زاجرا وهو فى حالة غضب شديد :

- كفاية بوس بقى يا سيدنا ! احنا حانتفرج على السينما والا عليك !

وكان الرجل محقا ، فقد كنت لا مراء وقتذاك أستحق المشاهدة .

أى والله لقد انتهى بى الأمر بعد طول وسوسة من الوسواس وتلبية منى الى أن أصبحت شفتا الحسناء فى فمى وجسدها بين ذراعى !

كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فزغدتنى فى جانبى ، وثانى مرة سحبت يدها . وثالث مرة استسلمت واتكأت على بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .

وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت اليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل الى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب سدى .

وضحكت وأنبأتنى أنه لا داعى لأن آتى لها فى المحل .. واتفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقى ، وأنا انسان قليل الحيلة .. عديم التجربة ، ليست لدى

أقل فكرة عن أين يذهب العشاق أمثالى بعشيقاتهم من مثيلاتها .

ولم يكن أمامى غير السينما أصطحبها اليها اللقاء بعد اللقاء حتى بدأت أضيق بالسينما وأهفو الى مكان هادىء يوفر لى خلوة نكون فيها أكثر تحررا واطمئنانا .

وعاد الوسواس يلح ويطلب منى أن أنقب وأبحث ، حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربة ، وقد قصدته لأقترض منه عربته وقلت له صراحة ، انى أريد عربته ، لأتنزه بها أنا وصاحبة لى .

وقال الصديق ببساطة :

- العربة تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك فى العربة ان لدى شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها فى أى وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

- هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معددا محاسنها ، فأنبأنى أنها واقعة ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية المسباق وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الانسان أن يدخل اليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد .

وأنبأنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وراديو .. ألخ .

وأنبأنى كذلك أن الكهرباء فيها بعداد من النوع الذى يشتغل بالنقود .. أى اننا لا نحصل على كهرباء الا بقدر النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا العداد .. وأخذ صاحبى يصف لى موضعه وكيفية وضع النقود فيه . وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة .. ولكن صاحبى طمأنتى بأن به من النقود قدرا كافيا ، وأنه يزودنى بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لى البيت جيدا ، وأعطانى نمرة الشارع ونمرة البيت ، وتواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة مساء ، حتى يعطينى العربة والمفتاح .

وتركت صاحبى وأنا أحس بفرحة ممزوجة بالكثير من الخشية والوجل .. فقد كانت المرة الأولى التى أوشك أن أنغمس فى مغامرة كهذه .

ومن باب الحذر ذهبت فى التو لأستكشف البيت بالنهار حتى يسهل على الذهاب اليه ليلا .

ووصلت الى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت مكانه نموذجيا ، فقد كان - كما قال صاحبى - دور سفلى فى أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب منعزل يفضى الى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئنا وأنا أمنى النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومر كل شىء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت فى الساعة السادسة بصاحبى وسلمنى المفتاح والعربة ، وفى الساعة السابعة والنصف كانت الحسناء تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب الأرض فى طريقها الى مصر الجديدة .

ومر كل شىء على ما يرام فيما عدا بعضٌ « عصلجة » من المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فاذا بها رائعة حقا وجميلة .

وعلمت أن صاحبى أفرط فى التواضع ، فقد وجدت الشقة مؤثثة برياش فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

، لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبتي في الشقة ، وجلسنا نستمع برهة الى الراديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التي وجدناها في المطبخ ، ثم ذهبنا الى غرفة النوم .

والواقع أني كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئا لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التي كنت لا أتمنى أكثر من النظر اليها ، قد أضحت بين يدي في هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر .. الذي يبعث في الجسد حرارة ، وفي النفس نشوة .

وخلعت الجاكتة والقميص ، وجلست واياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحسسها بتمهل وبطء وتمعن ، تماما كما يتحسس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها .. وأخذت أتحسس وجهها وعنقها بشفتي ، ورأيتها تسبل عينيها في نصف اغماضة ، وتراخت أعضاؤها في استسلام كلي !

وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تفيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة .

ولم يكن انطفاء النور في ذاته بالشيء المفزع .. ولكن المفاجأة التي حدث بها هي التي كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « أفتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة : « افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلمس طريقي في الظلمة متذكرا كل ما قاله صديقي عن النور وعن العداد الذي ينطفيء ان لم تضع فيه نقودا ، وأدركت أن الصديق قد خدعني ، وأنه لابد من وضع نقود في العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لنفسي موضعه وكيف وصفه صاحبي .

فى الطرقة ، على اليمين بجوار باب المطبخ .. هذه هى الطرقة ، وهذا هو باب المطبخ .. ولكن لا يوجد أى أثر للعداد !

وأخذت أتحسس الجدران قطعة قطعة ، حتى مست يدى صندوقا من الصفيح معلقا على الحائط به ثقب أشبه بثقب الحصالة ، ومددت يدى فى جيبى ، وأخرجت قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها فى الفتحة .. ولكن النور لم يضىء ، وأمسكت بالصندوق وجذبته فاذا به شىء منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لابد من العثور على ثقاب حتى أشعل به شيئا ولو قطعة من الورق تعطينى ضوءا ، ولم أجد بدا من الخروج الى الشارع لكى أقترض من أحد المارة عود ثقاب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من مر بائع لبن زبادى أخبرنى أنه لا يحمل ثقابا ، وكان الثانى رجلا أنيقا وسيما نظر الى نظرة تعجب وأنا أقف بالفانلة والبنطلون وسألنى لم أريد الثقاب ؟

وأنبأته بأن النور انطفأ ، وأنى أريد أن أبحث عن موضع العداد . ونظر الى الرجل نظرة شك وسألنى عمن أكون ؟ فقلت له . فعاد يسألنى عما اذا كنت صاحب الشقة أم ضيفا ؟

وضايقتنى أسئلته ، وقلت فى ملل وضيق وخشية :

- اذا كان معك ثقاب فأرجوك أن تعطينى اياه .

- الثقاب معى ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ، ولن تستطيع تشغيله ، أتسمح لى بأن أدخل لتشغيله وأوفر عليك الجهد . .

وأخذت أدير الفكرة فى رأسى ، وكنت فى حالة من الضيق والخوف تجعلنى متلهفا على تشغيل العداد بأية وسيلة ، فلم أجد بدا من قبول اقتراحه ، لا سيما وأن مظهر الرجل كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ودخل الرجل ورائي ووجدته يعرف الطريق أسرع مني ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضيء .

وكنت في هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم .. وطلبت من الحسناء الغضبى أن تنتظر حتى أعود اليها .

ووجدت الرجل قد جلس في الصالة ، في حالة من الاطمئنان ، وأخذ يقضم احدى التفاحات الموجودة في الطبق كأنه يجلس في عقر داره .

وكنت أتوق الى خروجه والتخلص منه . ولكني لم أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك في نفسه ، فتظاهرت بالصبر وبأن وجوده لا يزعجني كثيرا .

ووجدته يعود الى أسئلته الحرجة البائخة التي بدأها من قبل فقال لي :

– أظن حضرتك ضيفا ؟

– أجل !

– لأول مرة تحضر الى هنا ؟

– أجل !

– هل تعرف صاحب البيت ؟

– أجل ، انه قريبي .

– من هو ؟

ووجدته قد تمادى في أسئلته ، ولكني لم أجد بدا من اجابته حتى أتخلص منه :

– انه علي بك فوزي .

وضحك الرجل وأمعن في الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل الى أنه مخبول ، وندمت على ادخاله وقلت لنفسي ان الظلمة خير منه كثيرا وأهون شرا .

ولم أجد طريقة لاخراجه خيرا من أن أزعم أنى أريد مغادرة الدار فيضطر للخروج معى ثم أعود وحدى ثانية .

ونهضت متجها الى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكتة كى أوهمه أنى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقته بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على حافة الفراش وهى فى قلق رغم اضاءة النور ، ولم تكد ترانى حتى هبت واقفة وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكنى أسرعت بوضع يدى على فاها كى أمنعها من الحديث خشية أن يسمع الرجل صوتها وهمست فى أذنها :

– لا تتحدثى ان فى الصالة رجلا غريبا ، وهو الذى ساعدنى على اضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل .. أو لعله سكران ، فهو لا يريد الانصراف ، وسأفهمه أنى خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود اليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت الى نظرتها الى مجنون ، ولكنى خطفت القميص والجاكتة وأغلقت الباب قبل أن أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكتة على كتفى وقلت له :

– هيا بنا .

– الى أين ؟

– انى أنوى الخروج .

– ولكنى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج الى حزم وأن الرجل يريد أن يستغل موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

– أرجوك ، ليس لدى وقت للمزاح .

– أنا لا أمزح ، أؤكد لك أنى أود البقاء لأنى متعب .

– تستطيع أن تستريح فى بيتك .

– وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أنى أستريح فى بيتى .

– هذا بيتك ؟

– أجل ! هذا بيتى ، أما البيت الذى كان مفروضا أن تكون فيه فهو البيت المجاور . لا تدهش فالبيتان متشابهان ، وأنا نفسى أقع أحيانا فى هذا الخطأ .. والآن تستطيع أن تنتقل وحدك ، وأنى مسامحك فيما أكلت من تفاح .

وضحك الرجل .. ولكنى لم أضحك ، لقد كانت المشكلة عويصة ، كيف أخرج وأترك الحسناء ؟ وكيف أخرجها أمامه وأنا قد زعمت له أنى وحدى .

ولاحظ الرجل ترددى .. ولاحظ نظرتى الى باب حجرة النوم فأدرك ما وراءه .

وكان الرجل حكيما لطيفا فنهض معتذرا وقال :

– انى جد آسف .. تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ سلامى الى فوزى بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف دمى .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحسناء فى حال من الخوف والضيق والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفا ، ولا ضيقا ، وخرجنا نحن الاثنين قانعين من الغنيمة بالاياب !

★ ★ ★

أمام الفكهاني

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل المغمض العينين .. الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .. هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليهـــــــــــــــا .

هذه القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالها على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فاثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم الى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربى .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح على فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار .. أو قد يكون اليقين بأن أحدا منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر الى تكذيب والتشنيع على .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان الى الأبطال الأربعة .. لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى الى نشرها .. كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع

أمام الفكهاني

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل المغمض العينين .. الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .. هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليهـــــــــــا .

هذه القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالها على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فاثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم الى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربى .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح على فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار .. أو قد يكون اليقين بأن أحدا منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر الى تكذيب والتشنيع على .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان الى الأبطال الأربعة .. لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى الى نشرها .. كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع

المرحوم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها .. فلأكتبها أنا عنه ، ولو صدق ما يقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية سترن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض .

تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ .. أى قبل أن أولد أنا .. فى احدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم .. أم الأفندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « انه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقى ، الذى قال عنه المارونى : « انه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهدا من عهود الأدب » .

والاثنان .. كما هو واضح ، لمن لا يعرفهما من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وانى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلىء ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقا على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى شبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على كرسى آخر بجبته المهفهفة وقفطانه الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لا يقل بياضا ولا احمرارا عن وجه أبى ... وقد وضع هو الآخر ساقا على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من مبسم شيشة تكركر بجواره .

ولكى أعطى للقارىء فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدأ بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبي يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لا يقيم وزنا لأوضاع الحياة .. يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج .. قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، أنه استقال من عمله ، وأوحى اليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهم احدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفا بكف متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه .. ثم اتضح أخيرا أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى » .

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرسا فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب الى الاسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة . فاذا ما جاء ذلك اليوم .. رفض السفر .. ويظل جدى يتوسل اليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيرا ، ولكى يطمئن جدى على سفره ، ويأخذه من يده ويذهب به الى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار .. فيهدأ بال جدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود الى الدار مطمئنا .

ويصل القطار الى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار .. ثم يأخذ القطار العائد الى القاهرة لاعنا الاسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى .. أما الشيخ البرقوقى .. فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية .. وكان شديد الاعجاب به .. يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب العربى وأعلامه وعباقرته .

كان الاثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقى عندما هل عليهما الشيخ الفك وقد سحب فى يده ولده امام .

ولست أعلم كثيرا عن الشيخ الفك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب .. نقى السريرة شديد الورع .. قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره الى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

والى من يلجأ الشيخ الفك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين

الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقى ، وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطيب بابنه الى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقى والسباعى حتى اهتدى اليهما أخيرا .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه قائلا :

– بجى ما يخفاش عليك يا سيد سباعي أنى أنا خايف على الولد من مصر .. أنا باسمع أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعينه تتفتح ويخسر .. جلت فى نفسى ما فيش غيركم يجدر ياخذ باله من الولد ، وأنا حاسيبه لكم وعارف اننى سايبه فى بيته .. مش كده والا ايه ؟

ويجيب الاثنان فى نفس واحد :

– أمال .. دا فى عنينا يا عم الشيخ .. دا ابننا .. ريح بالك وطمن نفسك .. ما تحملش همه أبدا .

– أنا برضه جلت كده .. هو احنا لنا حد غيركم .

– دا انت الخير والبركة .

– الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركا ولده فى كنف صاحبينا ، وقد اطمأنت نفسه وهدأ قلبه .

بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد ، وهو امام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف أن صاحبنا امام ابن الشيخ الفك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه يخشى أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة ، أنه لا يعدو أن يكون طفلا غريرا .

قد يتصور كل انسان هذا ولا سيما عندما ينظر الى جيل أصحاب

الابتدائية الحالى .. جيل أطفال لا يزيد عن الحادية عشرة ..

ولكن امام لم يكن شيئا من هذا .. ان جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك كانوا فى سن آباء هذا الجيل .. كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت - مثلا - تلميذ سمكرى ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لا يعرف فك الخط .

كان تلميذ امام الفك .. رجلا ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت والهدوء .. هدوء الساهى اللى تحته دواهى يسبل عينيه ويطرق برأسه ، بادى الحياء ظاهر الخجل .. يجلس بجوار أبيه ساكنا منكمشا ، تقطر منه الطيبة والبراءة وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا الا وطرقها ، ولم يدع غرزة الا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .

هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها ..

وأنا أعرف أبى جيدا ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ، فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى ألعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالا .. لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران - وكان الولد أكبر منه - روسية فبطحه وأسال دمه .. وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نستذكر دروسنا ، لا خوفا علينا من الخروج ، بل خوفا من دخول أبينا علينا وتعطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الاغلاق ، فقد كان يصعد الى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ

البرقوقى - ابنه عاطف مثلا - عن طريقة أبيه فى تربيتهم ، لما وجدناها خيرا من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفك وديعته البريئة الطاهرة فى كنف المربيين الفاضلين ، وعاد الى بلده هادئا مطمئنا .

وكان أول ما فعله هذا (الوديعة البرية) أن ذهب الى أحد نظار المدارس الأهلية وساومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقيده فى المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لا بحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شىء .. كل ما هو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ .. نظير خمسة جنيهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت امام نفسه كتلميذ فى المدرسة . ثم انطلق على حل شعره .. يعيث - ببقية المصروفات - فى القاهرة فسادا .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور .. وامام - كما يقولون - مقطع السمكة وديلها .. حتى طبقت شهرته آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت السر ، الا ولامام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه - من أهل البلد الذين يزورون القاهرة - بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ فى بادىء الأمر وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحسد .

وأخيرا لعب الفار فى عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيرا من الذهاب بنفسه الى القاهرة ليرى بنفسه جلية الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهم والاشاعات ، وأسبل الابن عينيه وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهدأ الأب بعض الشىء ، وخفت وساوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين .. فأخذ ولده وذهب الى الشيخ البرقوقى والأستاذ السباعى ليتأكد م

حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليزيدهما توصية به ، ورعاية له .

ووصل الشيخ وابنه الهادى الوديع فى يده ، الى المكتبة حيث وجد المربيين الفاضلين فى محلها المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

– والله يا جماعة ماخبيش عليكم .. أنا بلغنى عن الواد امام حاجات وحشه جوى .

– خير ان شاء الله ؟

– بلغنى أن سيرته مهببة ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .

وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

– امام ! مين قال كده يا سى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم .. ده امام زى القطة المغمضه .

وزادت القطة المغمضة تغميضا وانكماشا ، وقال أبى فى سره :

– والله مسيرك تروح فى شر أعمالك ياامام الكلب ، وتفضحنا معاك .

وعاد يقول للشيخ :

– أمام ؟ امام سيرته مهببه ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسة .. ده حايموت نفسه من المذاكره ، واحنا حتى قلنا له يا امام حقك ترحم نفسك شويه .. مش كده يا امام ؟ .

وأطرق امام برأسه موافقا .. لقد قالوا له هذا حقا ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن امام

ويضربان المثل على طيبته وصلاحه .. حتى أقتنع الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

- والله أنا برضه جلت كده .. بس كلام الناس وسوسنى .. الله يلعن أبوهم .

- غايرين منك يا عم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

- معلهش .. الله يسامحهم .. أهو برضه جينا شفناكم واطمأنينا عليكم ..

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماما ، ومد يده للسلام ..

وفى نفس اللحظة بدت عربة كارو .. قد اعتلتها حفنة من نساء وجه البركة وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء « الفاتحة للعسكرى » .. وارتدت احداهن طربوشا وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربة تهز بطنها وردفيها وجلست البدرونة بجسدها السمين الترهل والمنديل الأحمر أبو أويه وقد تهدلت ملاءتها من حافة العربة وأخذت تدق على طبلة بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام ، اذ لم يكن فيه ما يثير العجب ، فطالما مرت أمام المكتبة أمثال تلك العربات ، ولكن المصاب وقع عندما لمحت احدى النسوة صاحبنا امام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحبت متسائلة :

- بت يا تفيده .. مش هو دا امام ؟

- آه والنبى ياختى .. باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

- يوه .. دا امام .

- ينيلك يا امام .

وصاحت البدرونة :

- ودا ايه اللى جابة يا اختى فى وسط المشايخ .. ؟ يوه جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربجى أن يوقف العربة ، ونزلت احداهن الى الأرض صائحة :

- المنيل على عينه عليه لى ريال .. بقاله شهر .. فين يا واد الريال ؟

★ ★ ★

ويهز أبى رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لى :

- لم أشعر فى حياتى بخجل أشد مما شعرت به فى ذلك الوقت .. لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقى أن دشا باردا قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجها .

★ ★ ★



الأقرع النزهى . انسان أقرع ونزهى . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض .. بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم .. وهو بعد كل هذا نزهى فنجرى .

حدث هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نمونجا للأقرع النزهى .. !

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئا عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى .. انسان أقرع ونزهى .. أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والنهيبيص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التدابير .

أقول انى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نمونجا للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ،



الأقرع النزهى . انسان أقرع ونزهى . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض .. بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم .. وهو بعد كل هذا نزهى فنجرى .

حدث هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نمونجا للأقرع النزهى .. !

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئا عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى .. انسان أقرع ونزهى .. أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والنهييص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التدابير .

أقول انى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نمونجا للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ،

أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهيا ، وأن ضيق الوقت وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة ، قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ، وسدت فى وجهها سبل الفرفشة والتهييص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة القيظ ، ولهيب الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرد ، تلفح وجهى وتشوى بدنى ، وبين أن أغلقها ، فأكتم أنفاسى ، وأسلق جسدى ، وأضحى كما يقولون ، عرقى مرقى ؟ .

وعندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلو لى أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف واغراء الشاطىء والمستلقيات على الشاطىء .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وان كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس - عدانا - ما بين صبى أحمق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبة ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف بأن فى الحياة أحزانا ، وكان شعارنا بسمة على الشفاه ، وقهقهة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء وتشييع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علائم الحزن بشق الأنفس ، اذ نذهب لتعزية أحدنا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشا اقترضه فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعيا الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلاقى الأمرين فى كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى انسان - مهما ثقل دمه - مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معا فى تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم طبعا ، ولم يكن وضعنا فى التيم ناتجا عن اجادتنا لعبة بل كان منا مجرد عُفونه وتلحمة وخوف من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائما السبب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و « الهارد لك » .

ويخيل الى أنى أستطيع – بمنتهى السهولة – أن أملأ عشرات الصفحات .. عن حوادثنا وقتذاك عن النوادر المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن أختم كتابتى بمجرد مقدمه بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على القصة رأسا .

فى ذات صيف رأينا – بلا داع – أن نذهب للتصييف فى الاسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا عادة التصييف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج وقصر النيل ، وثانيا ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصييف حتى يكون ذلك داعيا لسفر أحدنا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثا ، لم يكن لأحد من أى أقارب يمكن أن يستضيفونا فى الاسكندرية ، ورابعا لم نكن نملك حرية السفر دون أهلنا ، وخامسا وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفينا للتصييف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصييف ، فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه لا مستحيل فى الحياة ، فكل شىء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصييف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب فى رحلة مع المدرسة لنعسكر فى خيام على شاطىء سيدى بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه معا ، وبدأنا بموازنة الميزانية !.

ولم تكن موازنتها - نظريا - بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالايراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون - بهذا المبلغ التافه - الا جهادا وكفاحا لا من أجل التصييف والتنزه والفرفشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء - فى المصيف - على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التى يمكن أن تعيننا فى الضراء وتشد أزرنا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا - بالاضافة الى ذلك - أن أسرق قدرة من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل .. كنا نعدها يومذاك من أثمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أقرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب الى المصيف الا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة - فى عرفنا - لكل أرستقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، الى قميص حرير أبيض سبور وبنطلون فانلة ، الى كاسكيت ونظارة سوداء وبايب . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طقما كاملا . فقد ابتعنا واحدا من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطى الى ثلاثة أقسام نتبادلها يوما بعد يوم ، فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس ، والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبايب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب الى أهل الريف ، بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا الى الاسكندرية وقد تملكنا احساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب ..

ولست أريد الاطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التى صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور - بقدرة قادر - فى احدى الكبائن الخشبية فى بقعة ما ،

بشاطىء الاسكندرية ، والواقع أنى لا أدرى حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطى الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شيء مستحيل » ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة « مدام ماريكا » ، التى تنازلت لنا عن حق سكناها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يوميا ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نحملها ونعود بها الى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها فتقرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن تقيم الصلاة فستجد حيطانها الراكعة
اذا ما قرأت اذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام ماريكا » بأفضل كثيرا من دار الشاعر ، ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحة بها ، احساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم ننم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأطعمة فى دولاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقلاء منظمين ، وأخذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاما للخدمة - اذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى احضار خادم واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنوبتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدى لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ وغسل أوان وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا » والاعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هانئة ، وتعود كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ، وتعودنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية - وهى ملابس الشاطىء - دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفا اليها الحواشي والرتوش ، مضفيا عليها من بنات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفي ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام ماريكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، وفي تلقى تأنيبها على الاسراف فى استعمال المياه ، وكان الرفيق الآخر - كما يدعى - على موعد غرام .

وكنت أشعر فى ذاك اليوم أننى على أتم حال من الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكنت قد استعرت من صاحبى الملازم للدار - أى الذى سيقوم بالخدمة - نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يتملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، اذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أنى قد أصبحت انسانا آخر أقرب الى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابعة على رأسى ، والنظارة السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولسقوط الشمس وشروقها . ان الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرستقراطية ،فهل يعقل أن تغيب الأرستقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل الى أن أنظار الناس قد تسمرت فى .. وأخذت تحدجنى ، وأنى قد بت شغلهم الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل الا التهامس على والاعجاب بى .

وهززت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معا ، طقم الكاسكت وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التى قل أن يجود بمثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبصة » وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأناقة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثمن مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين .. وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به .. ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول اليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، زاعق الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين الا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدرى ، أكان حقا سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع الفاتنة فى شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من الله .. ؟

على أية حال ، لم يكن لدى وقتذاك فرصة للتفكير فقد كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى - بدون جهد - أقف بجوارها متكئا على الكورنيش . وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء قدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة

عن تصوري ما أنوي قصه على صاحبي ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب في ذهني التحابيش والتحاوير التي أنوي أضافتها الى مغامرتي الجديدة ، وكنت أمعن النظر في وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفه لهما جيدا .

واستمر الحديث بيننا هادئا ممتعا ، حتى أخبرتني في خلاله أنها ابنة « فلان باشا » ، وأحسست برأسي يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود الى البيت حتى أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التي أصبت بها وليتأكدا أن مغامرتي حقيقة واقعة ، لا ادعاء فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت في هوى .. العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء في السابعة صباحا والشاطىء خال ، وتركتها وانطلقت الى الكابينة لأقص على صاحبي ما حدث لي وأنبئهما بالموعد الصباحي .

ولم يبد عليهما ، علائم التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ، بلهجة الواثق ، انهما يستطيعان التأكد من صدق قولي بأن يذهبا للشاطىء في الساعة السابعة حيث ألتقي بالحبيبة الأرستقراطية .

وهز أحدهما رأسه مستنكرا وتساءل :

- الساعة السابعة ، باكر ؟ .

فقلت في ثقة :

- أجل .

- أنسيت أنك نوبتجي باكر .

نوبتجي ! ! .. أجل ، لقد نسيت النوبتجية .. ان على أن قوم بدور الخدمة في الغد .

ولكنى لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة فى العالم يمكن أن تمنعنى من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلانى ، فأبيا ، وتوسلت اليهما فأصرا على الاباء .

واستيقظت فى الساعة الخامسة صباحا بعد أن صممت على أن أنهى كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم أنطلق فى السابعة الى موعدى ، ماذا يريدان منى أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمرا عن ساعدى وبدأت أعد معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .

وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فاذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقرا بكوم الحلل أمام الحنفية على شاطئ البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « فل مفتح » .

وفركت يدى فرحا واغتباطا .. وهممت بالنهوض ، راضيا عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصرى ، فاذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها وصدرها وساقيها ، الحبيبة الارستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ،وهى تتأملنى ، وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوثت يداى بالهباب وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتنى بحركة لا ارادية ، أرفع يدى الى وجهى فألوثه بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :

- سيدى جايلك حالا .

ثم ألفح النحاس على كتفى وأسير مغنيا بأعلى صوت :

« سلم على .. سلم على .. لما جابلنى وسلم على ، يا بوى يا بوى » .

ووصلت الى الكابينة فوضعت النحاس فى المطبخ وجلست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسى ، وأخذت أزيل من وجهى الهباب وقد صممت أن أثأر لنفسى من صاحبى فلا أذيقها طعاما .. وأن أرتدى كذلك الطقم الأرستقراطى بالكامل فأحرمهما من التبغ بنصيبهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتديا المايوه الصوف والقميص الحرير ، والبنطلون ، والكاسكيت ، والنظارة ، والبايب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لهما قطعة واحدة من قطع الأرستقراطية .

وعدوت الى الشاطىء فوجدتها مستلقية على الرمال وحييتها فى رقة ، فنظرت الى فى دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

- انت لابس هدوم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ؛ لقد أصرت على أننى ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبدا أننى فى هذه المرة .. كنت « سيدى » نفسه .

وأخيرا اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها انى صعقت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلل .

وكانت رقيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

- لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، اذا ما لقيتنى تسألنى مقهقهة :

- ازاى سيدك ؟

★ ★ ★



ودق المدفع وأقبل الضابط على خيمة الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة .. وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات .

لا أظن أن هناك سؤالا أعيتنى اجابته كهذا السؤال ؟ .

ماذا يحدو صاحبنا « الضو » الى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر ! ! .. مائة وعشرون يوما .. ونحن لا نذوق لقمة واحدة .. قد خلت من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه فى طعامنا .. ليل نهار .. حتى يتمتع بما تبقى منا مغمورا بالجاز ؟ .

لا أظن .. فلو أن الأمركذلك لكان خيرا له أن يحتفظ بكمية الجاز التى يخلط بها الطعام .. ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم فى طعامه بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبى حريص على صحتنا .. فهو يدس الجاز فى الطعام حتى يحصننا به ضد الأمراض .. ويجنبنا شر الأوبئة ؟

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد فى الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئا مستبعدا على صاحبنا ، فهو انسان غير مفهوم لا تستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج فى نفسه خيره بشره وأضحى خليطا معقدا لا يستبينه المرء حتى بعد طول دراسة فأنت تظلمه اذا ما قلت عنه شريرا ، وتظلم نفسك اذا ما ظننت به صلاحا واطمأننت اليه .

ولكن ماذا يجبرنا على التمسك بالضُّو ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ما هو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضو ، الا لأننا لم نجد ما هو خير منه .

كان الضو على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا اذ ذاك بالواحات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ باحدى كتائب آلاى السيارات الخفيفة وقد احتللنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا اذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت الى هناك عقب اعلان ايطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل الى الواحات على العسكرى الضو ، أو على الحاج الضو كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول ان اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت اننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر الكتيبة سواه عندما سألناهم عمن يجيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضُّو المذكور ، وأنبأنا فى « تقل » أنه كان يعمل طباخا لأباظة باشا ، وعائلة أباظة مليئة بالباشوات ، وليس من باشا منهم الا وعنده على

الأقل طباخ ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباظية الباشوات لنسألهم واحدا واحدا عما اذا كان أحدا منهم قد استخدم طباخا منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضّو .

لم يكن هذا بالطبع أمرا يسيرا ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقلنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مرمطون عند أباظة باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضّو يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرانب فى معمل .

وبعد بضع أكلات ، اتضح لنا أن الضو هذا قد يكون حقا اشتغل عند أباظه باشا ، ولكنه قطعا لم يكن طباخا ، ولا مرمطونا ، ولا سفرجيا ، قد يكون اشتغل « سايس » ، سائقا لسيارة ، سكرتيرا ، أى منصب ، عدا المناصب التى لها صلة بالطعام ، اللهم الا فى حالة واحدة ، وهى اضراب أباظة باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، وبطول المكث بين الحلل والكوانين ، حصل الضو على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل ان بطوننا اخشوشنت واعتادت شظف العيش ، كما يعتاد الانسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول اننا اعتدنا سيئات هذا الضو ، وبدأنا نستسيغ طعامه الا أمرا واحدا ، وهو اصراره على خلط الطعام بالجاز .

« ياسى ضو حرام عليك كفاية جاز بقى » .

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه اليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أننا مصغية ، حاولنا أن نسوقه اليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضا .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطنية لوحده ، واحنا نرشه هنا على الأكل ؟ » .

أبدا ، انه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلنا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس الى عقب تناول احدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدا عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

– اسمع .

– نعم .

– ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذاك الضيم ؟

ماذا تقصد ؟ .

– أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سمم أجسادنا بالجاز والرمل .

– ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

– لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟؟ انها أسهل مما تتصور ، ان الأمر لا يستلزم منا سوى شىء من الجرأة ، ما رأيك فى أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شىء يمنعنا من اجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى الى خيمة المطبخ ، ونادى على الضو ، فخرج اليه صاحبنا بوجهه اللامع الممتلىء وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

- صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه الى حيث خيام العساكر وقال :

- على الأورطة .

ولم يكن الضو قد ظن شرا اذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

- حضرتك تريد شيئا من الأورطة ؟

- أريدك أن تذهب الى الأورطة ولا ترينا وجهك أبدا .

ولم يخف على الضو أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فهز رأسه وأجاب :

- حاضر يا فندم ، مفيش مانع أبدا .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعا ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هى قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء - غير عسكرى - سيتساءل فى دهشة : « قرعة » واحدة لكل ضابط الأورطة ؟ .

ولست أشك أيضا فى أن أى قارىء عسكرى ، ممن أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! » .

والواقع أنها كانت .. قرعة وافية .. لا تقل بحال من الأحوال عن الشمامة .. الضخمة .. ونظر الى البارودى ونظرت اليه (ولم يكن هناك

غيرنا من يعلم بالمؤامرة التى دبرناها لطرد الضو) .. ثم نظر كلانا الى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا فى نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

- نعملها صينية .

- صينية قرع ؟ .

- ولم لا ، ألم تأكل فى حياتك صينية بطاطس ؟ .

- صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟ !

- وما الفرق بين البطاطس والقرع .. هل سترفض القرعة أن تعمل صينية ؟

ونظرت الى القرعة السمينة ، ولم يبد لى أنها يمكن أن ترفض أى شىء فقلت له :

- لا .. لا أظنها سترفض .

- انتهينا .

- ثم أمسك بالقرعة فى يده وقال :

- عليك التقشير ، وعلى التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ فى « استكرادى » من أول الأمر فان عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

- لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا على الباقى .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

- اسمع سنحضر الضو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشماتة ،

وعندما انتهى من التقشير أشار له البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا فى تخريط القرعة فى احدى الصوانى ، ثم خرطنا الطماطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللحمة فى جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبى كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال متفاخرا :

– ألم أقل لك ؟ هذه هى كل الشغلانة ، ليس هناك أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذى أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارىء وهممنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبى :

– الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضو .

– آه ، لقد ذكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة

– كما يقولون – لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

– لا أظن أن الملح وحده يكفى ، بل لا بد من التوابل الأخرى ، حتى تعطى الصينية طعما ونكهة ، لا بد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ، ففى هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوصة فوق المنضدة وقال صاحبى :

– أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصوانى ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ما هى الأصناف التى تلائم القرع ، والا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها لا توضع الا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيرا من أن

نرسل الى الضو نسأله - دون أن يحضر - عن أنواع وكميات التوابل التى توضع فى صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضو الخبيث يقول :

- العلب عندهم ، يأخذون منها ما يشاءون ، هى كيمياء ؟

ونظر الى البارودى وتقدم الى العلب وعليه سيماء من نوى أمرا جللا وقال :

- دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسبرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير كله بركة .

وأخيرا دخلت الصينية الفرن تتهادى باسم الله حافظها ومنضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها .. فوجدها بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية كما هى ، ونظر البارودى الى وقال مستشيرا :

- ما رأيك فى أن نحضر الضو ليجلس - فقط - أمام الصينية ؟

- فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياد فلا يتدخل قط فى شئون الصينية .

وأحضرنا الضو ، وذهبنا الى خيمتنا وجلسنا نتسلى بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ما تم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ونظرنا اليها فاذا بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبى رأسه فى دهشة متسائلا :

– لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر الى الضو فى غيظ وهمس الى :

– يخيل الى أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما تذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت الى الضو الشامت الساخر والى الصينية الخضراء التى تأبى النضج وقلت له متشككا :

– جائز .. لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا الى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا نطل على الصينية فاذا بها كما هى ، وأشار البارودى الى خيام العساكر وقال للضو :

– اذهب ولا ترينى وجهك ، والا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور بجوارنا يئز ، والصينية – سامحها الله – لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب ميعاد الافطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيرا سلمنا أمرنا لله وخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثا فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها » .

ونظر الينا على مقلد قائد الكتيبة بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى حسرة :

– والله عملتوها .

وذقنا الصينية واذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

وتبادلت أنا والبارودى النظرات .. نظرات الندم على أننا تركنا الضو ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقاً ، قد أنتهز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوما .. ولم نكتشف أنه مظلوم ، الا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطا به ! ! .

وعندما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء الضو ! ! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شىء على وجه الأرض سوى « صينية القرع » .



في سبيل الكلب

حبيبع

هذه القصة يقصها علينا طفل فى السادسة من عمره ، فيحملنا بها الى دنياه .. دنيا قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها زمنا رغدا .. زمنا ليت الليالى التى أمضته ترجعه ...

كنا نجلس فى مخبئنا السرى - أنا وأخى الأكبر - وهو عشة من البوص على شاطىء النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد - وقد نشر أخى أمامه صورة كلبين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان قد قطع الصورة من احدى المجلات . ونظر الى أخى متسائلا :

- ما رأيك ؟

فأجبته وأنا أحملق فى الكلبين بنظرات معجبة :

- رائعان !

- وسادت فترة صمت كان أخى ينصب خلالها بأذنيه كأنه يتسمع شيئا ثم قال :

- يخيل الى أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

- لابد لنا أن نخفى الصورة والا رآها أبى .. أين تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الاجابة بل أردف قائلا :

- سأخفيها فى حذائه .

ونظرت اليه فى دهشة وقلت له معترضا :

- ولكن .....

ولكنه لم يدع لى فرصة الحديث اذ كان يستطيع التحدث أسرع منى ، وكانت كل محاولة فى مناقشته تذهب سدى ، لقد كان فى التاسعة وكنت فى السادسة ، واستمر يقول :

ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد .

وتخيلت حذاء أبى .. ثم تخيلت أبى نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيل ، وهززت رأسى بشدة ولكنه قال :

- لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه الا فى المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت اخفاءها فى الحذاء .

ولكنى هززت رأسى مرة أخرى . لقد كنت أكره أن ألقى بيدى الى التهلكة ، وكنت أرى فى المسالة جرمين : أحدهما ادخال صورة كلاب فى الدار ، والثانى العبث بحذاء أبى .. فالعقاب مضمون .. لأن أبى لا يحرم مذنبا ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلا ضخما يطأطىء رأسه عندما ينفذ من أى باب ، وكانت أمى تقول عنه أنه طيب القلب ، ولكنى لم أك أصدقها لأنى ما رأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيبا وقد خصص لنا عصا لتأديبنا اذا أخطأنا .. أو اذا خيل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت الى الدار ، ذهبت الى أبى وقلت له :

- نريد كلبا .. أنا وأخى .

ورفع الى رأسه فى دهشة وقال :

- ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتا ، وأخيرا تكلم هو قائلا :

- لا فائدة في الكلاب ... انها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت الى أخي الذى وثب من فراشه وسألنى متلهفا :

- ماذا قال لك ؟

لقد قال انها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لها انني لا أحب أبى ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ان الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

وهل كان الآباء في رداءة أبى ؟ !

انه ليس رديئا ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال . هيا الى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث الى أبى بصوت لم أميز منه الا بضع كلمات « انهم أطفال ، ولابد لكى تفهمهم أن تفكر بعقلهم » ، ولم أفهم معنى ما تقصد ، ولم أهتم بذلك كثيرا ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخي ، وسمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

- الكلاب لا تؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلبا ! لأكله وشرب دمه ... ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقا في التفكير ، وأخيرا سألت أخي :

- أتظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخي قد أغفت عيناه ، فأجابني وهو نصف نائم :

يأكل ماذا ؟

- الكلب .

- لا ... لا أظنه حقيقة من آكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك .. فى ذات يوم عاد أخى من المدرسة فقذف بكتبه الى المائدة ثم أشار الى أن اتبعه ، ودلفنا سويا الى حجرتنا فهمس فى اذنى :

- أين أبى ؟

- لقد خرج .

- الى أين ؟ ألا تعرف ؟

الى المقهى أو الجامع .

- اسمع .. لقد حصلت على شىء عجيب جدا . ماذا تظنه ؟ .

وهززت رأسى متسائلا ، فاقترب بغتة من أذنى ثم همس قائلا :

- لقد حصلت على طفل .

- طفل ! ؟ طفل حقيقى ؟

- أجل ... أجل ... لقد وضعته فى العشة على الشاطىء وسنتسلل الآن الى هناك .

- ولكن كيف حصلت عليه ؟

- لقد عثرت عليه .

- وهل هو ملكنا الآن ؟

ملكى أنا ، ولكنى سأعيرك اياه فى غيبتى عنه .

وعدونا الى العشة ، وهناك وجدنا الطفل يبكى فرفعه أخى بين ذراعيه ، ونظرت اليه وقد تملكنى الاعجاب وقلت فى دهشة :

- انه طفل حقيقى ! !

ثم وجهت الحديث الى الطفل أسأله :

- كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبني بكلمة ، فقلت في نفسي ربما كان أبله ، أو أصم لا يسمع ، ولكن أخي أخبرني أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأني كنت مثله في يوم ما .. فلم أصدقه لأني لا أذكر أنني كنت لا أستطيع الكلام يوما .

وطلب مني أخي أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب الي الدار فيسرق له قليلا من اللبن ، كما طلب مني أن أغني له اذا بكى ، فقلت له :

- هذا هين ، وسأغني له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخي ، وجلست الى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن اسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لي أن أحمله بين ذراعي كما فعل أخي ، وحملته فعلا ، ولكنني سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعته جانبا وجلست بجواره ، وأحضر أخي اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب مني أن أعود الى الدار حتى لا تقلق والدتنا .

وعدت الى الدار فوجدتها جالسة ترتق بعض ثياب أبي فسألتها قائلا :

- عندما كنت طفلا .. أكنت حقا لا أتكلم ؟

ونظرت الى في شيء من الدهشة وهزت رأسها بالايجاب فعدت أسأل :

- تماما كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

- فأجابت ضاحكة :

- أجل ... مثلها تماما .

ولكن الطفل خير من القطة ، ومن الكلب أيضا .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخي ، فتناولنا العشاء وذهبنا الى الفراش ، وكان رأسي مشغولا بالطفل ، وبما أنوي أن أفعله معه ، وأي اسم سنطلقه عليه ، ولم يكد يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخي :

- بماذا نسميه ؟

فدفعني أخي بيده قائلا :

- اخفض صوتك والا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول ، فأجابنى بقوله :

- لم افكر بعد ... هل تقترح شيئا ؟

- « بوبى » .

- لا تكن غبيا ... ان هذا اسم كلب .. انى أرى ان نسميه « عادل » .

- « عادل » اسم لا بأس به ، ولكننى أفضل اسم « بوبى » ! ! .

- قلت لك ان هذا اسم كلب ... فلا تكن عنيدا ... ثم لا تنس أن الطفل طفلى ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .

وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان الى الفراش ، وأطفىء النور وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :

- سأذهب الى الطفل لألفه باحدى الفوط وأنومه .

- أتعرف كيف تنومه ؟

- أجل .. انى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخى يذكر عنى كل شىء وأنا طفل . أما أنا فكنت لدهشتى لا أذكر عنه شيئا ! .. لقد كان لا شك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب الى المدرسة كعادته ... ولم يعلما شيئا عن بقائه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعبا ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، الى أن اضطر الى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والاعياء .

وقضينا يوم لطيفا مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث أسنان ، وبدا لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل .. فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره والعناية به ... فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه الأمور ..وهى على أية حال لابد أن تتدرب من الآن على ذلك .. ولا شك أنها ستسر كثيرا بالطفل .... فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيرا ما يحدثنى عن سوسو .. وهى ابنة جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشترى طائرة ليطيرا سويا الى بلاد بعيدة .... وأنبأنى أنها لم تمانع فى الفكرة ، بل رحبت بها .. وقد سألته أن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيرا .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر الى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

- أهذا هو ابننا ... ؟ انه جميل جدا .. انه يشبهك كثيرا .. ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

- بوبى ! !

فنظر الى أخى شزرا ثم قال بلهجة تشبه كثيرا لهجة أبى :

- يا لك من حمار ! ! قلت لك ان هذا اسم كلب .

ثم التفت اليها قائلا :

اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت الينا نحن الاثنين شزرا وقالت بنفس لهجة أخى :

- يا لكما من حمارين ... ! ! انه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتبينه فاذا به حقا بنت .

ونظر الى أخى قائلا بعد برهة :

أذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو الى الدار ، وفى الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم شيخ البلد وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شيء .. فلم آبه لهم وانطلقت فى طريقى ، وعندما وصلت الى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

- أجل ... منذ يومين .. اليوم وأمس .. لم نر له وجها .

ونظر الى أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

- أين أخوك ؟

على الشاطىء .

قل له أن يحضر .

وانطلقت الى أخى أسوق اليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ، ثم التفت الى سوسو قائلا :

- ابقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبه الى مخزن الحبوب وبعد برهة عاد الينا وحده وسألته أمى :

- أين الولد ؟

- لقد حبسته فى الحاصل .. انه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة ...

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى الى الفراش ، وقد شغلنى التفكير فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا الى فراشهما حتى قمت الى النافذة وقفزت منها ، فسقطت على ركبتى وأحسست بالدماء تسيل من أحداهما

وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة الحالكة ، والخوف يتملكنى وخيل الى أنى أبصر أشباحا تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى ،

ووصلت الى الحاصل وصحت أنادى أخى في صوت هامس مبحوح ، فأجابنى أخيرا ، وسألنى أن أذهب الى الشاطىء لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنى رأيت شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف ، وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى أنى أبصر أمامى عفريتا وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك واقفا فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار وأخبر أمى .. ولكنى رأيت العفريت يقترب منى فصحت مستنجدا وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت الى الشاطىء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على ساقيها وأخذت تربت عليه وتغنى له ... ثم سألتنى عن أخى فقلت لها ان أبى قد حبسه .. ولكنى لم أكد أتم قولى حتى أبصرت أخى قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من نافذة الحاصل .

وفى نفس اللحظة سمعنا فى الخارج وقع اقدام كثيرة وأصواتا تتحدث ، ثم أبصرت حشدا من الناس يقتحم « العشة » ... واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذى حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شىء ، وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم الى العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكاكأوا على أخى وخيل الى أنهم يتأمرون على ارساله الى السجن ، وتسللت من بين الجمع وهممت بأن أعدو الى الدار لأخبر أبى ، ولكنى تذكرت العفريت ... فعدت الى سوسو وهمست فى أذنها بأن تذهب فتخبر أبى .

ورأيت الشرطى قد أمسك أخى فهجمت عليه وضربته بقبضة يدى ، وصحت فى الجميع ان هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يحسوا بى واستمروا فى نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحت أبى بجسمه الطويل قد أقبل فى الظلمة ، وبجواره سوسو تعدو الى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدا لى جليا أن الجميع كانوا يخشون أبى تماما كما نخشاه ... لقد كان رجلا مخيفا .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

- أننا لم نأخذ طفلنا .. ان أخى هو الذى وجده ، وهو ابنه ، هو وسوسو . ولكنه جذبنى من يدى ودفعنى أمامه ...

ولم نسر عدة خطوات ... حتى لمحت أمرا جللا ، واكتشفت شيئا خطيرا .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء ! !

وقرصت أخى ... وأشرت الى الحذاء .. فعلت وجهه علامات الذعر وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل من المصائب ، وأنه قد أضحى فى حالة يأس .

ودخلنا الى الدار واقبلت أمى تحتضن أخى .. ولم ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك فى أنه قد أعد لأخى عقابا خطيرا .. فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيرا صورة الكلاب التى لاشك فى أنه اكتشف وجودها فى الحذاء .

ودلفنا الى حجرتنا فى سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدىء من روعه :

- لا تخش شيئا .

انى لا أخشى شيئا .. لأنه لن يستطيع أن ينالنى بسوء .. سأهرب من الدار ولن أعود أبدا .. فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

- اذن سأسافر معك .

- حسنا سوف ندبر أمرنا معا .

- وسأطلب الى أمى أن تفر معنا أيضا .

- لا تكن أحمق ... اياك ان تذكر لها شيئا عن ذلك .

ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

اذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتا عجيبا لم أعتد سماعه من قبل .. سمعت أبى يضحك ؟ !

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا ... وسمعناه يقول لأمى .

ألم ترى ابنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة .. اتذكرين عندما كنت طفلة .. وكنت تحملين الوسادة على كتفك وتدعين أنك قد أنجبت طفلة .. وتطلبين منى أن أحضر لها اللبن ، لقد كان ابنك خيرا منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاها لسوسو .. لقد أنجبا طفلة جاهزة ، أتذكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

– ليت الليالى التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة ... وأردف أبى يقول :

– لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة .... وخيل الى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ، وسمعت أبى يقول :

– أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلبا ، على ألا يعبثا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت الى أخى أحضنه ... وأخذنا نرقص فى الحجرة .....





هنا أضع ألحانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد ، وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .

لى صديق سيريالى ...

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرياليزم .. وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبى هذا لابد مندفع الى أحضان السيريالية ، متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهرا ومظهرا ، أو هو صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع تماما أنه ليس بى من سمات الفنان شىء ، وانى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدما لى علبة سجائره قائلا :



هنا أضع ألحانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد ، وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .

لى صديق سيريالى ...

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرياليزم .. وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبى هذا لابد مندفع الى أحضان السيريالية ، متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهرا ومظهرا ، أو هو صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع تماما أنه ليس بى من سمات الفنان شىء ، وانى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدما لى علبة سجائره قائلا :

- سيجارة ؟ !

- أشكرك جدا ، أنا لا أدخن .

- عجيبة ! اذاً أحضر لك قهوة ؟ !

- ولا أشرب قهوة .

- شاى اذاً ؟

- ولا أذوق الشاى .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثا :

- لو كان عندى كأسا من الوسكى لأتحفتك به ، لأنه يعز على أن تزورنى ولا أقدم لك شيئا .

- أنا لا أذوق الخمر .

- مدهش .. لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاى ، ولا خمرة ، ولا حتى أى مكيف آخر ؟

- أبدا .. أبدا ، انى غير ذى «كيف» ، لاسجاير ، ولاخمر ولاميسر ، ولا ، ولا .

- ما شاء الله ، ما شاء الله . هكذا الاستقامة والا فلا . لابد أنك تصلى وتصوم .

- أبدا ، أبدا .

- لاتصلى ولاتصوم ؟

- ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربى .. وأنا ما أتيت ذنبا .. انى مخلوق كافى خيرى شرى .. انى منهى عن الفحشاء والمنكر . «خلقة» .

وأغرق الرجل فى الضحك ، وظنها مزحة .

ولكنى فعلا كذلك ، لاسجاير ولاقهوة ولاشاى ولاخمر ولاحشيش ، ولاصلاة ولاصوم ولاشيء أبدا .. أبعد كل هذا أكون فنانا ؟

أما صاحبى .. فقد كان فنانا بمعنى الكلمة .. فهو فوق ارتكابه لسلسلة الأشياء المبينة عاليه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة .. كان مخلوقا ممعنا فى الغرابة .. مفرطا فى الشذوذ .

وكان صاحبى - ولم يزل بالطبع - موسيقارا من أساطين الموسيقى ومن عمدها فى هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيرا قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائما بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين الموسيقيين نسيجا وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعانى الى زيارته فى «المعبد» .

وكان لقاؤه حارا مليئا بالحفاوة والترحيب ، اذ تفضل واعتبرنى فنانا ، رغم خلوى من كل مميزات الفنان ، وعندما سألنى زيارته فى المعبد ، لم يحاول أن يزودنى بأى توضيح عن هذا المعبد ، كأنما هو شيء كان لزاما على أن أعرفه .. أو كأن كل انسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمنى بالجهل ، وخشية أن يعرف أنه ليس لى معبد ، لأنه لو كان لى معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح .. معتقدا أنها دعوة عابرة ، أو عزومة مراكبية ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسى ، ما دمت لن أذهب .

وانغمرنا فى الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت الانصراف ومددت يدى أودعه وأخبره بأنى سعيد بلقائه متشرف بمعرفته ، وانى أتمنى أن أراه كثيرا .

وضغط على يدى بشدة ، وقال فى لهجة مصرة مؤكدة :

- أنا منتظر زيارتك للمعبد .

- ان شاء الله .

- اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدا على وجهى التردد .. وهممت بأن أعتذر .. ولكنه أردف مؤكدا :

- لن أقبل منك اعتذارا ، لابد من حضورك ، انى أتوق الى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيرا . انى واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد الشاعرى الهادىء .. أنا فى انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما وأنه كان انسانا رقيقا مهذبا حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر .. وأنه لم يكن - فيما عدا مسألة المعبد - يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين .. ولاسيما أيضا أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب الايضاح :

- لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو كائن فى شارع كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول الى المعبد .

ولم أحاول - رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد - أن أستزيده ايضاحا فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين عاما ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد .. ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد .. وظللت أدلف من شارع الى شارع .. وكان الحى مظلم مقفر ، يقع فى طرف من أطراف القاهرة المجاور للمقابر ، وأخيرا وصلت الى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن النمرة ، ولم أدقق كثيرا فى البحث عن النمرة .. اذ كنت أعتقد أن المعبد غرض شهير مميز .. وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط غيره من البيوت العادية القائمة فى الشارع .

وقطعت الشارع ذهابا وايابا دون أن يلفت نظرى مبنى غير عادى وسط البيوت القائمة في الظلمة .. لا مآذن ، ولا قباب ، وأى هيكل ينم عن المعبد .

وهكذا لم أر بدا من التدقيق فى البحث عن الرقم المطلوب ... وسرت أقرأ أرقام الدور واحدا واحدا حتى وقفت أخيرا أمام الرقم المقصود .

عجبا ! انه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لابد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، اذ ليس على البيت أى سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة مترددا أمام البيت وكان بيتا عاديا مكونا من بدروم ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى الى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :

- اسأل ....

وسمعت صوتا يصيح من البدروم :

- مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت صوت صاحبى الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدى ودخلت أتلمس طريقى فى ظلمات الحديقة الى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع صاحبى أن يميزنى واندفع فى سيل من الترحيب الحار قائلا :

أهلا .. أهلا .. يا مرحبا .. تفضل نورت المعبد .

وتفضلت .. ولكنى قطعا لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة فى أرجائه والتى لم تفلح فى اضاءتها ذبالة الشموع الخافتة .. جاثمة كما هى ... لم تتأثر قط بدخولى .

وتلفت حولى افحص المعبد ... فوجدت نفسى فى بدروم عادى خرب ... مظلم رطب . لا يفترق عن أى بدروم آخر . الا فى أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمعن فى ابرازها فاصطنع من أعمال

الديكور والزخرف شقوق ظاهرة فى الجدران وتهديم فى الأركان ... واسقاط للبياض فى الأسقف وهضاب ووهاد فى الأرض .. وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو فى أحد الأركان ، وعود معلق فى ركن آخر .. ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بى صاحبى فى أرجاء المعبد ... طواف معجب متفاخر ... ثم استقر بنا المقام فى احدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسى .. فقد أحسست أنى غير فنان .. أو فنان غير أصيل .. اذ لم يصادف المعبد هوى فى نفسى ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك الا أن أوافق صاحبى على أعجابه وطربه .. فان خجلى يدفعنى دائما الى أن أكون منافقا كبيرا .

قال صاحبى :

- هنا أضع الحانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا فى هذا المعبد الملىء بالسحر والطلاسم .

وهززت رأسى وقلت موافقا وأنا أزج فى قولى ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

- أجل ! أجل ! ان سحره عجيب ... أنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى الى وهاد الأبد .

وطال بنا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضى والأبد .. حتى حان وقت انصرافى فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى احدى المحلات العامة فأصر على أن أزوره فى تلك الليلة أنا وصاحبى .

ورحبت بالدعوة فقد كان - كما سبق لى القول - انسانا لطيفا ... وكانت جلسته محببة الى نفسي .. وكان صديقى هذا يتوق الى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت الى الدار .. ولم يطل بى البحث عنها هذه المرة وسرعان ما وقفت وصاحبى أمام الباب الحديدى أدق الجرس .

ولم يجبنى الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتما لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابنى صوت الفنان من احدى نوافذ السلاملك وهتف بى مرحبا :

- أهلا وسهلا .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلاملك ليقودنى الى المعبد ، واتخذت طريقى الى بابه ، ولكنه نادانى بصوته الجهورى :

- اطلع هنا ... ان المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة الى باب البيت ، وقبل أن نصل الى الباب أضيء نور السلم وبدا على ضوئه مدخل البيت أنيقا نظيفا ليس به شيء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب الى الفناء الداخلى .. فوجدنا السلم الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفا لامعا .. وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش .. والمدخل كله ينم الروعة والفخامة والنظافة ... الا من شيء واحد أثار دهشى وبدا نشازا فى المدخل الفخم .. وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو أثار عمارة .. وفى وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف مقلحف ملىء بالفروع اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر الى صاحبى وهز رأسه أسفا وقال :

– أنظر الى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة .. بدل أن يتركه هكذا مشوها مدخل البيت .

وقلت موافقا :

– منتهى الاهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على اهمال البواب وقذارته وان كان أسفى يشوبه شيء من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولقانا صاحبى الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحبا .. وأخذنا بالحضن ، ثم قادنا الى داخل الشقة ، وهممت بأن الفت نظره الى القاذورات التى كومها البواب فى بير السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك .. ضعيف جدا وبعيد الاحتمال جدا ، الى درجة أننى لم أجرؤ على التصريح به .. ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل .. وأن يكون الفاعل هو صاحبى الفنان .

ولهذا السبب لم أجسر على ابداء أية ملحوظة عنها ... ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجيعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبى الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها انها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟ !

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن اتجاوز عن كوم الاتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كانا يشغلان حيزا كبيرا من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقا الى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ، وأخجل صاحبى .

وجلسنا فى صالة أثثت على الطراز العربى ، منخفضة الأرائك .... مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيفى بيديه صائحا :

– أم عبده .

– وأتت أم عبده ، ترفل فى ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز القهوة .

ولم تكن تختفى أم عبده حتى قفز من مقعده قائلا :

– ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمنى أصلى ، وسأحضر لكم شيئا من زحله .. زبيب زحلاوى على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهى كلبة كبيرة فى حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

– سأحضر لكم شيئا من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث ... وكوم الأتربة والشجرة الجافة ما زالت تساور ذهنى .. وتدس بنفسها فى تفكيرى .. والسؤال عنها يتراقص على شفتى .. ويهم بالانطلاق .

وفجأ وبلا سابق انذار .. رأيت صديقى الفنان يميل على ويسأل فى لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بابهامه الى ناحية السلم :

– أرأيتها ؟

– واستطعت من منظره واشارته وطريقة سؤاله أن أدرك جلية الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل صاحبى الفنان نفسه وليس من اهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك مسألة تستحق التقريظ .

وأجبته بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :

– رأيتها .

– وما رأيك ؟

بديعة .. آية فى الابداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير داريا ما هى هذه التى رأيتها آية فى الابداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الاعجاب :

– انها قطعة خالدة من السيرياليزم . انها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها . انها تمثل القفر والخراب ، وترمز الى التراب الذى يختلط بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . انه تابلوه رائع ، كل شىء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز الى شكل من أشكال الفناء ، لو تأملت فيها مليا لأبصرت العجب ، أرأيت هذه الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلمة السابعة ، انها ترمز الى الجماجم الخاوية ، التى كانت كالزلط ، أما الحجرة المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج الى دراسة طويلة . انها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظللت أبحث عنها مدة طويلة حتى وجدتها أخيرا ملقاة على قارعة الطريق بعد أن أصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء ، انى أحمد الله الذى من على بالستر فلم أشك له اهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيرا نهضنا للانصراف وهو يقول :

– انى أنوى ان أقدمها للعرض فى أول معرض للسير ياليزم .. وانى أقدر لها ثمنا يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيته يفغر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك الا أن انظر الى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء ، فاذا بى أرى المكان نظيفا أنيقا لا أثر فيه ولا للحطب الجاف ، واذا بمدخل الدار قد عاد اليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبى لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

– الشجرة ، أين الشجرة ، لقد سطوا عليها اللصوص ، يا عم على ، يا عم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فاذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقدا مشتعلا وأخذ يلقى فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

– وهجم صاحبى على « عم على » يمسك برقبته ويصيح :

– أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

شجرة ايه ؟

الفناء .. الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

– يا أستاذ لا داعى لكل هذه الثورة ، ان عم على كان يقصد معاونتك .

معاونتى أنا . كيف ؟

– ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت الى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

- أجل ، لقد كانت كذلك .

- فعلام الغضب اذاً ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء . لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبى إلى النيران والى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقا وأجاب :

- معك حق ، هيا بنا   برافو عم على ، أنت شيخ السيرياليين .

★ ★ ★

الزوج الحادى عشر

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها بمثل هذه البساطة حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر وعلمنا أنها لم تترك زوجها العاشر الا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » .

على شاطىء البحر ... فى صيف العام الماضى ... رأيت ابتسام .

ولا شك ان الاسم قد وقع لدى القارىء كوقعا حسنا ... وأنه يتوقع بعد ذلك أن أصف له هيفاء من فاتنات الصيف ... بمايوه من قطعتين ، برز منها الصدر ، والتف الخصر ، واستقامت الساقان .

لا يا سيدى ... آسف كثيرا ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولا ربع ذلك .

أقول انى رأيتها على الشاطىء لا تتهاوى ، ولا تتمايل ... بل تسير كالهجين ، تدفع بجسدها الضخم المتراهل الى الامام والى الخلف وتدب بقدميها على الأرض دبا وقد أمسكت حقيبتها بيدها ، حقيبة جلدية من الحقائب التى يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .

البضائع ؟ ....

أجل ، الحلقان والأساور والروائح والخواتم التى تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فتكتسب منها رزقها .

لا تروع يا سيدى القارىء فلقد روعت من قبلك ، عندما سمعت اسمها ثم رأيتها ، بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة - واخشيتاه من أن تقرأ القصة - مجعدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة آمرة غير مستجدية .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط فى حاجة اليها .. فلما انصرفت سألتهم لم اشتروا منها ما اشتروا ولم عاملوها بمثل ما عاملوها به .. فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لا تتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فان بها لوثة ! ومن تلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا انها ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت ما يقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه الى انجلترا ! !

وزارتنا المرأة مرة ثانية ، أو أغارت علينا ، وانسجمت معنا بعض الشىء ، فجلست تقص علينا طرفا من مغامراتها وزيجاتها ... ثم انبأتنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكتمت الضحك فى صدرى خشية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لا يعدو حديث خرافة .. حتى سمعت بعد ذلك طرفا من تاريخها ، من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شىء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة بنادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث الى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط هدوئه وبأنه ليس هناك ما يمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى « أحمد أفندى » . وهو رجل فى منتصف العمر ...ا مقبول الشكل ، ممتلىء الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة في كل ما ذكرت من الأوصاف فهى لا يمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشيء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين .. واقعة لو لم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها الى آخرها ... لقال عنها فرية أو أكذوبة .

وبدأ صاحبى يقص على الواقعة ... قال :

– كنا نعمل معا فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالها مختلف الوجوه التى تفد علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة .. غادة في جسدها الممتلىء وصدرها البارز اغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتطاولت ببصرى كما تطاول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة ... الا واحدا لم يحرك ساكنا ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد أفندى » . ووقفت الغادة أمام « أحمد أفندى » تحييه بابتسامة تذيب الحديد ! ! ونظر هو اليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولا تسل عن الحسد الذى أحسسنا به نحو أحمد أفندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد أفندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصيا ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة ....

وطال الحديث بينها وبينه ، حديث ناعم رقيق ، تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيرا انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الفاتنة وما قصتها ، فتبين لى أنها التقت بأبيه في بلدته وتوثقت بينهما عرى

الصداقة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل فى البريد وأعطاها عنوانه فلم تكد تصل الى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق اننى رأيت الفتاة « لقطة » واستخسرتها فيه ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ما دام « يعطى الحلق للى بلا ودان » ويااليته بلا أذن فقط .. بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفى .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر .. لا تكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها فى أنوفنا .... وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طربا وحبورا ، وأخذت معاملة أحمد أفندى لها تتطور مع الأيام ... فتبدل جموده رقة ، وخشونته لينا ، وذهب عنه ذلك البرود والركود .. فهش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ اقباله عليها يزيد المرة بعد المرة .. بل لقد خيل الى أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول ان هذا هو ما خيل الى ... حتى ذات يوم حادث ملأنى دهشة .. حادث حاولت أن أجد له تفسيرا وتعليلا ولكن عبثا .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد أفندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالا ، وقد بدا فى أتم هدوئه ورزانته وعقله ، وقورا حكيما ... لا يتوقع منه المرء هزلا ولا مجونا ، ولا عبثا ، ولا مزاحا .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم .. عندما تراه قد هبط فجأة عن كرسيه فاختفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟ لقد نظر الى الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهة ذعر شديد وسمعته يهمس :

– قل لها اننى غير موجود .

اقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير .. فقد حدث ما حدث فى مثل لمح البصر .. ولك أكد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسناء تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتسامة من ابتساماتها العذبة وتسألنى فى صوت رقيق :

- أحمد أفندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

- لا يا فندم .. غير موجود ؟

وحيتنى بابتسامة أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت الى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر الى ويهز رأسه متسائلا ، فأجبته :

- لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسيه وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفزع من رؤية الحسناء وسبب تهربه منها كأنه كان مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تذرع بالصمت وطلب الى أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجىء الى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع انذارا بالخطر فيهبط الى مخبئه فى لمح البصر حتى اعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد .... فأجبتها بنفس الجواب الذى عودتها عليه « غير موجود » ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدراء وقالت فى صوت هادىء :

- أنا أعلم انه موجود .. قل له لا فائدة من التهرب ، سأعثر عليه ان عاجلا أو آجلا .

- هرب ؟ ولم يهرب ؟ وماذا تريدين ؟

- ماذا أريد منه ؟ ... انى زوجته !

ان اجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت اليها مشدوها وقلت في ذهول :

- زوجته .. أنت ؟ .. ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد ...

ونظرت الى المرأة نظرتها الى أبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه .. أرجوك قل له لا فائدة ... قل له يكف عن الزوغان ويظهر بالتى هى أحسن ، والا .....

ودون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد أفندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالايجاب .

وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالايجاب أيضا .

أنبأنى باختصار أنه ذهب اليها فى العوامة ذات ليلة وأنها أسكرته وعقدت زواجهما واستكتبته تنازلا عن كل ما يملك ...

وتملكنى العطف عليه والرثاء له ... فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن انجليزى .

وهنا صحت :

- قبطان سفينة وكابتن انجليزى ؟ ما اسمها ؟

- ابتسام ؟

– ابتسام ؟ لا يمكن ... ! انها تكون حقا قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعا لم تكن حسناء ولا غادة ولا شيئا من هذا الذى تقوله .

– هل تعرفها ؟

– رأيتها فى الصيف الماضى شوهاء شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك الجمال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتمم حديثك .. فلا شك أن الزمن والأزواج العشرة قد فعلوا بها ما فعلوا .

وأخذ صاحبى يتم حديثه قال :

– قلت لك أنى أحسست نحو صاحبى بعطف شديد وأخذت أفكر واياه فى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقذه من ورطته وتطوعت أنا لمساومة المرأة للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد أفندى بل جلس ليواجهها ، وسألتها عما تريد ثمنا للطلاق وللورقة التى معها فأنبأتنى باصرار أنها لا تريد الطلاق ..

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد أفندى فى نظرها « لقطة » ثمينة ، وأخيرا نفذ صبرى فصحت بها أن تذهب الى حيث ألقت .

ورمقتنى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطء وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهى تسير الى الخارج وأنا موجس من نظرتها خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة الى مكتب المدير .

وأحسست بقلبى يهبط بين جوانحى .. فقد كنا لا نخشى أحدا فى ذاك الوقت كما نخشى المدير ، اذ كان رجلا جادا ، قاسيا ، وكرهت أن يكون أول من يعرف بالفضيحة ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد أفندى اجراء حاسما رادعا .

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد افندى فصعد معه ، أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبنى .. ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد أفندى أنكر كل علاقة له بالمرأة ، وسألنى عما أعرفه ، ولم أستحسن أنا فكرة الانكار فرويت له الحقيقة ، وقلت له انها زلة شباب واننا نأمل ان يتصرف فى المسألة بعطفه الأبوى .

وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد ملأنا الخوف والقلق .

وفى اليوم التالى حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة ، ووقفت أمامنا برهة تحدق فينا بنظراتها ثم حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها الى أحمد أفندى بالورقة التى تنازل لها فيها عن أملاكه ، وطلبت منه الطلاق .. بلا قيد ولا شرط .

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر ، وظننا المرأة تمزح ، ولكنها كانت جادة فى قولها .

أية معجزة تلك التى استطاع المدير صنعها ... كيف استطاع أن يؤثر عليها ... بالضرب .... بالتهديد ... باللين ... بالسياسة .. من يدرى ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها أحمد أفندى بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد أفندى الا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! .. لقد كان المدير نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

والله وحده أعلم !

حديث جدة

وبدأت العجوز قصتها بصوتها الناعم الرقيق ، فهدأ الجميع الذى كان يطن كأنه خلية النحل . وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

كان يوم الخميس من أحب الأيام الى نفسه .. فقد كان هو اليوم الذى يشعر فيه أنه حر طليق برتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيدا الى مكتبه طول أيام الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزى كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد ! .

وكان يوم الخميس ممتعا حتى فى حصصه ... فقد كانت الحصتان الأوليان « انشاء » والثانيتان « رسم » ولم يكن هناك أحب الى نفسه من الانشاء العربى والرسم . فقد كان بارعا فى كليهما ، وكان مدرسا العربى والرسم حبيبين الى نفسه ، اذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سمينا أبيض اللون خفيف الدم .. فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسرورا .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذنا بانتهاء الحصة الرابعة ، حتى يسرع الصبى الى بيته ، فيقذف بكتبه .. ثم ينطلق الى بيت جده .

وكان بيت الجد هذا هو أحب أماكن النزهة الى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! ... الحرية المطلقة التى يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبى يجد نفسه مطلق الصراح ... يلعب كما يشاء ... ويأكل ما يشاء ، ووقتما شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع الى أنه لم يكن من المستطاع توسيخها أكثر مما كانت) ... وكان يستطيع الشقلبة كما شاء دون أن يتهمه أحد بالشقاوة والعفرتة ... كان يشعر أن بيت جده ملىء بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » ... والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعا خصبا لمرحهم ولهوهم .

وأخيرا .. وهو أهم ما فى الأمر ... كان الصبى يجد فى البيت جدته العجوز التى كانت تخصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص ... براعتها فى كل شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش ... لا تستطيع النهوض ... ولا تقدر أن تقف على ساقيها .

كانت الجدة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزا ككل العجائز ، فقد كان كل ما فيها محببا الى النفس مقربا الى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة .. طيبة القلب بلا حمق ولا بله .. سديدة الرأى بلا مكر ولا دهاء ... معتدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى .. بجسدها الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئا ساكنا ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد اخفى بمنديل أبيض ، ويداها النحيلتان المعرورقتان قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئا ناعما .. وقد التف حولها الصبية يلحون عليها ان « تحكى حدوته » .. وتبدأ قصتها فاذا بالسكون يسودهم وكان على رؤوسهم الطير .. ويشرئبون ، بأعناقهم اليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ويستمرون هكذا في سكوتهم ساعات طوالا وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنه حتى تنتهى القصة فيتمطون ويتثاءبون ويذهبون للعشاء والنوم ورووسهم ملان بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة .. خضراء العينين ذهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الاطوار شاذه الخلق . اذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثير ، وكانت من فرط احساسها يخيل الى الناس انها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم انسانا كان أو حيوانا ، وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحدا يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضالتها وحقارتها . وكأن أكثر ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة الى قلب الصبى ، انطلق كعادته الى بيت جده .. فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلل ونال منهم التعب .. فتسللوا الى الدار الفسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمة ، والتقوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم احدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ، تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم الى الجالوس حول فراش العجوز ،

وأشدهم انصاتا وأكثرهم لهفة وتشوقا .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهدأ الجميع الذى كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

– فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان .. كان يحكم الدنيا ملكا من ملوك الانس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعان السلطان ، .ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تطفىء لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراع والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وابعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة ... لا تعصف بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفزع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة الى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام ... فاستصوب رأى الحكيم ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل الى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم فى الوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصدهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراءه واحتقاره ، وطردهم شر طرده ، وعاد الرسل اذيال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا الى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى اهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ، ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها الا الدماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه ... وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه اربا اربا ، وأن يعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته، وسير الى خصمه جيشا لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملأ الحقد قلبه ، اذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواه ، وكان يتحرق شوقا للثار لكرامته المهدورة ، والانتقام ممن احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لا تبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على ما لحقه من اهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة ....

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم أيدى سبا ... وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدى الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب ... فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير ما سفك لأجلها من دماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح .. فقد كانت رائعة الحسن فاتنة ساحرة .. حتى أحس الأمير ان الأسيرة على وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه ناهية آمرة ! !

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول ان يستميل الأميرة اليه ، ولكن قلبها كان مليئا بكراهيته ، وحاول استرضاءها برفع من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروما من حب الفتاة التى جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه ويعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداده ووجه جيشا هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ فى تحصين مدينته ... فلم يكد يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت فى مقاومتها الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئا . وكانت الأميرة تتلهف على نجاح أبيها فى هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب فى قلبها عندما رأت أباها يفشل فى اقتحام المدينة ، وصممت على أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أبيها فى هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له وأحس أن بغضها قد أضحى حبا ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه ... واستدرجته الأميرة .. فوثق بها ولم يتوان عن أن يفضى اليها بكل ما عنده .

وفى جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت فى زى أحد الجنود وذهبت الى معسكر أبيها فباحت له بأسرار الأمير ، ولم يمضى يومان على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدها العدو حصدا .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه فى قبو مظلم رطيب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير فى كل ما حدث له الا خيانة الأميرة .. فقد كان حبها ما زال عالقا فى فؤاده ، وكان يمزق قلبه ان ما أظهرته له من حب لم يكن الا لخدبعته والايقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير ... فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلبا ... فقد انقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم الا عظاما نخرة وحطاما بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير .. وشعرت أنه لم يرتكب الا من أجلها ، وأنه كان كريما معها ، وبدأ حبه يتسلل الى قلبها يوما بعد يوم . حتى شعرت أخيرا أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتنكرت الأميرة فى زى خادمة وحملت معها اناء به خمر وتسللت اليه تبغى زيارته فى قبو وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطى الاناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه . ولكنها أسرت اليه بندمها واعترفت له بحبها .. فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجينا فى القبو من أن يعيش بدونها طليقا فى قصره ومملكته ، وشغلهما الهوى برهة .. ثم أفاقا على صوت اقدام الحارس تقترب ... فانهمكت فى ملء الكأس للأمير .. وأعطتها له فجرعها فى لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريبا ، وتوهم حرارة فى جوفه .. فظن بالشراب سما ، وبدأ الوهم يتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم فى نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز وأمسك بعنقها فى قبضة يده وصاح بها :

– لم تصرين على تعذيبى وقتلى ... أنا الذى أحببتك حبا لم يحبه انسانا من قبل .. أنا لا أخشى الموت ، ولكنى يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب فى الذهاب الى الحياة الأخرى بدونك !

وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لا تخدعه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته اياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير

طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لا حراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشاؤه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئا ، والأمير يحس أنه ما زال حيا ، وأخيرا بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تدس له السم ، وانه قتلها ظلما وعدوانا .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

★ ★ ★

ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز .. فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم . وانقلب السكون ضجيجا وصخبا واندفعوا يتسابقون الى الطعام كأنهم لم يذوقوا للأكل مذ خلقوا طعما .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فاذا بالصبية النحيلة ما زالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجرة مع الجمع الصاخب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات ... تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسمات وجهها .. وسألتها الجدة فى رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطعه البكاء :

– لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

وضحكت الجدة وربتت على ظهر الفتاة ... ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

- يا حبيبتى انها قصة .. فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجومها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين ... واستمر الأسى يملأ قبلها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ، وسأل عنها فأنبأوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبى أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامسا أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبى عمه ، والد الصبية المريضة ، قد حضر الى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتا .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها الى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابهما .

وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها الى حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبى دهشا من كل ما حدث ... لا يكاد يدرى سببا لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر

بجدنه قد تمددت فى فراش الصبية ، وقد ضمتها الى صدرها باحدى يديها .

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

– لقد أفاق الأمير فعلم أن السيف لم يقتلها بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجدته وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته ... وساء الأمير أن وجد نفسه حيا ، فقد كان لا يرغب فى الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضا لم تمت ، اذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا انقاذها ... فملأ الفرح قلبه .. ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها .. وخشى أكثر من ذلك أن تكون قد عادت الى بغضه وكراهيته بعد ما فعله بها ، وعصفت به الهواجس فعاد الى اغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب الى قلبه ... فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها .. وأبلغته الأميرة أن أباها قد عفا عنه وأطلق سراحه ،.وأنه حر فى أن يعود الى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، واخبرها انه لا يريد حريته ولا مملكته ، ولكنه يريدها هى .. فأخبرته أنها هى أيضا ملك يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة ، وعاشوا فى التبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

وظهر الهدوء على الصبية المريضه وكفت عن الهذيان واستمرت الجدة تدللها حتى راحت فى سبات عميق .

وعندما عاد الصبى فى الخميس التالى ، وجد الصبية فى وسط الجمع وهى تضحك فى غبطة ومرح .. وكان أول ما قالت له :

– ألا تدرى ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبى وقال :

- نعم أعرف .. لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبى ، وسألته من أخبرك ؟
وضحك الصبى مرة أخرى وأجاب :
- أخبرنى الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبى أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة الا وقد تزوج البطلان فى النهاية .

● ● ●